رسالة التوابع والزوابع

دار صادر
بيروت

رسالة

التوابع والزوابع

لابن شُهَيْد الأندلسيّ

صححها ، وحقق ما فيها ، وشرحها ، وبوبها
وصدرها بدراسة تاريخية أدبية

بطرس البستاني

دار صادر
بيروت

الطبعة الثالثة

1431هـ - 2010 م

دار صادر

تأسست سنة 1863

ص . ب ١٠ بيروت ، لبنان

© DAR SADER Publishers
P.O.B. 10 Beirut, Lebanon
Fax: (961) 4.910270 Tel: 910340
e-mail: dsp@darsader.com
http: www.darsader.com

الكتاب الاول

ابن شهيد الأندلسي

حياته ، أدبه ،

رسالة التوابع والزوابع

ابن شهيد

٣٨٢ – ٤٢٦ هـ (٩٩٢ – ١٠٣٤ م)

في الدولة العامرية

هو أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك من شُهَيْد ، ثم من أشجع وهم بطن من غطفان . ويتحدّر من سلالة الوضّاح ابن رزاح الذي كان مع الضحّاك بن قيس الفهري يوم مرج راهط . وكان جدُّ أبيه أحمد بن عبد الملك وزير الخليفة الأموي الناصر عبد الرحمن الثالث ، وأوّل من تسمى بذي الوزارتين في الأندلس .

وُلد أبو عامر بن شُهَيْد بقُرطُبة في خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، والأمر يومئذ للحاجب محمد بن أبي عامر الذي حجر على الخليفة القاصر ، واستبد بالأمر دونه ، وتلقب بالمنصور كما يتلقّب الملوك . وأثبت ابن بسام في الذخيرة رسالة لابن شهيد خاطب بها المؤتَمَن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد ابن أبي عامر ، يذكر فيها ما للعامريين من الفضل عليه وعلى أبيه ، فنعلم منها أن المنصور استعمل والده على الجهة الشرقية تسعة أعوام بتُدمير وبلنسية ، ولم يصرفه عنها حتى سئم العمل والتمس الإقالة ؛ فأقاله على رضاه فشخص إلى قرطبة ،

ومعه أربعُ مائة ألف دينار ناضّةً ، ومائة ألف من ذهب آنيةً ، ووثائق خمس مائة زوج مكتسبة ، ومائتا نسمة من رقيق الصقلب منتقاة . فكتب إليه يعرض عليه ما جاءه به ، ويحكّمه فيه . فجاوبه يقول : « لو أردنا أخذ ما أعطيناك ، ما قدّمناك . ونحن نخاف أن تستصفي نفقتُك ما استفتّه ، وتأتي على ما اجتلبتَه ، بارتفاع ثمن الطعام ، وانك لم تَرِدْ منه على ذخيرة . وقد صككنا لك بألفي مُدْيٍ بشطرين من قمح وشعير تستظهر بهما على زمانك ، فاقبضها من أهراء فلانة[1] لقربها من مكانك ، إن شاء الله . »

فهذا الرضى من المنصور كافٍ لأن يطلعنا على منزلة أبي مروان عنده ، وما له من الحظوة والكرامة في دولته ، وعلى النعمة التي كان يتقلب كاتبنا في أحضانها منذ طفولته . ونتبين في مكان آخر من الرسالة عناية الحاجب به ، وعطفه عليه ، إذ كان في الخامسة من سنيه . فقد جيء به إليه في يوم مطير ، وبين يديه تفاحة كبيرة ، ورآه ينظر إليها نظر من يشتهيها ، فأمره بأن يأخذها ويعضّ فيها ، فضاق فمه عن الإحاطة بجزء من أجزاء كرتها ، وصغرت كفّه عن القبض إلاّ بمختنق من مخانق أنحائها ، فتناولها المنصور منه ، وجعل يقطع له بفمه ويطعمه . ثم دعا ولده عبد الرحمن الناصر ، فقال له : « احمله إلى أُمك . » فأخذ بيده ، ومعه رجل يكنى أبا شاكر ، فامتنع الطفل عن السير من المطر ، فصاح بهما المنصور : « احملاه على أعناقكما. » فلفّا أعضادهما ، ووصلا أذرعهما بأعناقهما وأقلاّه إلى زوج الحاجب ، فأجلسته على سريرها ولاطفته ، ثم أمرت له بأربعة آلاف درهم : ألف عنها ، وثلاثة آلاف عن بعلها . ويخبرنا ابن شُهيد أنّه كان يأمل أن يوزّعها على الخدمة والعمّال من الصبيان وصبايا الجيران ، فصادره عليها

[1] فلانة : كنى بها عن اسم قرية أو بلدة .

أبوه ، ففرّق منها على حاشيته ، وأشار بحمل الباقي إلى خزانته . فلمّا بلغ المنصور ذلك ، بعث إليه بخمس مائة دينار ، وأقسم على أبيه بحياته ألاّ يمنعه منها ، فتصرّف فيها على هواه .

ويذكر لابنه عبد الملك المظفّر يداً عليه وهو ابن ثماني سنوات ، والمظفّر يومئذ وليّ للعهد ، لأن المنصور توفي سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) وأبو عامر بن شهيد في نحو العاشرة من عمره . وذلك أن والده أبا مروان زهد في الدنيا وتنسك ، ونظر إلى الآخرة بعد إبلاله من مرض ألمّ به ، فأشاح بوجهه عن الجاه والشهوات وهما ملء راحتيه . وبدا له أن يصدّ ولده عن مشارع الحياة العذبة ، فحلق له لمّته ، ونزع عنه ثيابه الحريرية ، وألبسه مدارع الكتان ، وحمله على التقشف وشظف العيش . فضاق الصبي ذرعاً بخطة أكره عليها ، « وكانت أفدح نازلة نزلت بصبوته ، وأقلق حادثة سلبت رونق بهجته » على حد تعبيره . فذات يوم زارهم الوزير ابن مَسلمة يعود والده ، فسأله عن حاله ، فكان جوابه نشيجاً وعويلاً ؛ فلمّا رجع أخبر المظفّر خبره ، فاستقدمه إليه ، وأمر به فألبس ثياب الحرير ، وضُمّخ بالطيب ، وحمله على فرس كريم ، وأتبع ذلك ألف دينار في طبق ، وعقد له على الشرطة ، لكي لا يجعل لأبيه سبيلاً عليه ، فكانت لسنه أرفع خطة ، كما يقول .

ولبث أبو عامر متصلاً بالمظفر بعد وفاة أبيه المنصور وانتقال الأمر إليه (٣٩٢ هـ) . ولكن ليس لدينا من أخباره في عهد هذا الأمير ما يستحق الذكر ، وكانت ولايته سبع سنوات ، وتوفّي سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) . ومع أن ابن شُهيد بلغ رتبة الوزارة في الدولة العامريّة ، إلاّ أنّه لم يصل إلى منزلة الكتابة في الديوان ليلقب بالوزير الكاتب ، على شدة تشوفه إلى بلوغ هذا الشرف أسوة بغيره من الوزراء الأدباء . ويخبرنا أن ثقل سمعه قعد به عن الكتابة للأمير ، كما

قعد بالجاحظ عنها إفراط جحوظ عينيه، وبأبي القاسم ابن الإفليلي ورم أنفه[1]، ويقول في ذلك: «إذ لا بدّ للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليها عينه، وأذن ذكيّة تسمع منه حسّه، وأنف نقيّ لا تُذم أنفاسه عند مقاربته له.»

وصار المُلك بعد المظفّر إلى أخيه عبد الرحمن الناصر، فجرى كأخيه وأبيه، في الحجر على الخليفة هشام بن الحكم، والاستقلال بالأمر دونه. ثم طمعت نفسه في الخلافة، بعد شهر من ولايته، ولم يكن لهشام أولاد، فطلب منه أن يوليه عهده ففعل. فسخط الأمويّون على الخليفة الضعيف لإخراجه الإمامة من أيديهم، فخلعوه وسجنوه، وبايعوا محمد بن هشام المهدي، من حفدة عبد الرحمن الثالث. وكان الناصر في طُلَيطلة، فلمّا بلغه الخبر قفل إلى قرطبة، ولكنه لم يجرؤ على دخولها لأن جيشه تخلى عنه، والفقهاء أخذوا يحرّضون الناس عليه. وكان يلقب بالشنشول أو الشنجول (Sanchol) وهو تصغير سانشو أو شانجُه، لأن أمّه أميرة إسبانية، وأبوها شانجه إمّا أنّه ملك قشتالة أو ملك النافار، كما يقول دوزي[2]؛ فكلاهما كان يخطب ود الحاجب المنصور، ويرغب في الازدلاف إليه. فلم يسع الفقهاء أن يسلموا مقاليد الخلافة إلى الشنجول: وهم يرون فيه شانجه الصغير وابن ملك الإسبان، فما زالوا يهتفون به حتّى أثاروا الحفائظ عليه، فكرهت نفسه البقاء، وأحبّ الانتحار فلم يُتح له، لأن المهدي أدركه بوزيره فقبض عليه، واحتزّ رأسه، فزالت بموته الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م).

---

١ قال ابن بسام في الذخيرة إن محمد بن عبد الرحمن المستكفي الخليفة الأموي، استكتب أبا القاسم ابن الإفليلي بعد كاتبه الوزير ابن برد، فوقع كلامه جانباً من البلاغة، لأنه كان على طريقة المعلمين المتكلفين. فلم يجر في أساليب الكتاب المطبوعين، فزهد فيه.

٢ يقول بروكلمن إنه ملك النافار.

الفتنة

غير أن محمد بن هشام لم يستقر ملكه على حال لأنّه جافى البربر لميلهم إلى العامريين ، فاجتمعوا بظاهر قرطبة ، فأتمروا به ، وبايعوا سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الثالث الناصر ، وتسمى بالمستعين . فقامت الفتنة بين الأميرين ، واتسعت ميادينها ، فغزا البربر قرطبة ، فاستولوا عليها بعدما قتلوا خلقاً عظيماً منها ، ودخلها المستعين في ختام المائة الرابعة للهجرة ، وهرب المهدي إلى طليطلة يستنصر الإسبانيّين ، فأمدوه بالعساكر ، فنهض بهم إلى قرطبة ، فامتلكها وهزم المستعين والبرابرة . ثم عاد هؤلاء إلى محاربته ، فخشي القرطبيّون من اقتحام البربر عليهم ، فثار الصقالبة ، فأخرجوا هشام بن الحكم من السجن ، وجددوا له البيعة ، على أمل أن يعتصموا به من البرابرة ، وقتلوا المهدي تخلصاً من الفتنة التي أثارها عليهم . ولكن المستعين استمر على حصار قرطبة حتى افتتحها عنوة سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) فقتل هشاماً ، وتولى مكانه ، وتغلّب البربر على الأحكام بعدما انتُهبت العاصمة وخرب أجمل قصورها ، وأُصيبت مثلها المدن والقرى في جوارها .

وكان عليّ بن حمُّود الإدريسي قد جاء الأندلس من المغرب ، فدعا البربر إلى مبايعته ، فأجابوه لما للأدارسة من الكرامة عندهم ، فدخل قرطبة سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) فقتل المستعين ، وتلقب بالناصر . فثار عليه خيران الصقلبي صاحب المَرِيّة ، والمنذر بن يحيى التُّجيبيّ صاحب سَرَقُسطة ، وبايعا عبد الرحمن الرابع ، من عقب الناصر عبد الرحمن الثالث ، فتلقب بالمرتضى . واستقام الأمر لعلي بن حمُّود نحو عامين إلى أن قتله صقالبته في الحمّام سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٨ م) فقام بالأمر بعده أخوه القاسم ، وتلقب بالمأمون ؛ فجمع خيران والمنذر الناس ،

وفيهم رجال الدين ، فصدّقوا بيعة المرتضى ، ونصبوه خليفة بشرقي الأندلس . ثم ساروا به إلى غرناطة ، وعليها زاوي بن زيري من حزب قاسم بن حمّود ، فرفض المبايعة ، وقاتلهم . فاتفق المنذر وخيران على خذل المرتضى لأنه أبى أن ينزل على مطالبهما ، ففاوضا ابن زيري في ذلك ، ثم انهزما برجالهما ؛ فقاتل المرتضى حتى صُرع كثير من أصحابه حوله ، وانكشف عنه الباقون ، فخاف أن يُقبض عليه ، فولّى إلى وادي آش ، فلحق به رجال خيران فذبحوه سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) .

واستوى القاسم بن حمّود على العرش مدّة أربع سنوات ، حتى جاء من طنجة يحيى ابن أخيه عليّ ينازعه الملك ، فاستولى على قرطبة سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) وتلقّب بالمعتلي ، وفرّ المأمون إلى إشبيلية فاستجاش بعض البرابرة ، ثم رجع إلى قرطبة سنة ٤١٣ هـ وملكها ، وهرب المعتلي إلى مالَقّة ، وتغلّب على الجزيرة الخضراء ، واستولى أخوه إدريس على طنجة وهي حصن للمأمون وراء البحر .

ثم ثار أهل قرطبة على المأمون وأصحابه البربر المستبدين بالأحكام سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) فخرج الخليفة إلى إشبيلية ومنها إلى شريش . وبايع القرطبيون عبد الرحمن الخامس أخا المهدي ، وتلقب بالمستظهر ، ولكنه لم يملك سوى سبعة وأربعين يوماً حتى قتله جماعة من الشعب ، فخلفه محمد الثالث المستكفي بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر .

ولم يلبث البرابرة أن تخلّوا عن المأمون بن حمّود ، وبايعوا ابن أخيه المعتلي سنة ٤١٥ هـ ، فزحف إلى عمّه واعتقله ، وجاء به إلى مالَقّة .

ثم خلع أهل قرطبة المستكفي سنة ٤١٦ هـ بعد ستة عشر شهراً من ولايته ، وجدّدوا بيعة المعتلي فاستعمل عليهم ابن عَطّاف ، وهرب المستكفي إلى الثغر ومات هناك .

وانتقض القرطبيون سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م) على المعتلي وصرفوا عامله عنهم ، وبايع الوزير أبو الحزم جَهْوَر عميد جماعتهم لهشام بن محمد أخي المرتضى ، وكان بلاردة في الثغر عند ابن هود . فلمّا انتهى إليه خبر البيعة انتقل إلى البرّنت سنة ٤١٨ هـ ، وتلقب بالمعتدّ بالله ، وأقام متردداً في الثغر نحو ثلاث سنوات ، حتّى اشتدت الفتن بقرطبة بين رؤساء الطوائف ، فاتفقوا على استدعائه ، فجاء العاصمة آخر سنة ٤٢٠ هـ ، فأقام بها حتّى خلعه الجند سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠م) ففرّ إلى لاردة ، ومات بها سنة ٤٢٨ هـ فانقطعت به الدولة الأموية .

واستبد بالحكم بعده في قرطبة العميد ابن جهور ، غير أن المعتلي بقي يردّد العساكر لحصارهم إلى أن أسلمت له الحصون والمدائن ، فعاد الأمر إليه حتّى قُتل سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) وهو يحارب القاضي محمد بن عبّاد الثائر بإشبيلية ، فذهبت بموته سلطة الدولة الحمُّودية العلويّة عن قرطبة ، وقامت حكومة الجماعة الأرستقراطية ، وعلى رأسها أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور من ملوك الطوائف .

ابن شهيد والمؤتمن

فهذه الفتنة العمياء التي تقاذفت الأندلس طوال خمس وعشرين سنة ، حتّى أفضت إلى تقطيع أوصالها ، لم يبلغ إلينا خلالها من أخبار أبي عامر بن شُهيد سوى نُبَذ متفرقة لا يتألف منها بحث متساوق في حياته ، فرأينا أن نسدّ ثلماتها بما نستطيع استخلاصه من شعره ونثره مستضيئين بمعالم التقلبات السياسيّة التي مرت به بعد وفاة الناصر بن أبي عامر سنة ٣٩٩ هـ ؛ فإن رسائله إلى عبد العزيز المؤتمن

ابن الناصر تدلنا على أنّه لبث في قرطبة لا يبرحها ، مع ما نال أولياء نعمته من غِيَرِ الدهر ، فانزعجوا عن دار ملكهم ، وتفرّقوا في البلاد الأندلسيّة ، فذهب المؤتمن إلى الجهة الشرقيّة من بلنسية وتُدمير ، واستقر بها ، فلم يغفل أبو عامر عن مكاتبته ، والإشادة بأفضال العامريين عليه وعلى أبيه . ويرجو منه أن يَصرِف له ضيعة كان وزير والده قد وعده بها ، فحالت الفتن دون إنجاز وعده . ويضم إلى الرسالة قصيدة طويلة في مدحه ، يذكر بها الفتنة ومقتل الناصر وانتشار الفوضى بعده ، ويحرضه على استرجاع الأمر ، وكشف الغمائم ، مستبشراً بأنّه انتضى عزيمة ماضية لاحت بوارق سعدها في انتصاره على السودان إذ ضربهم بالصقالبة البيض :

من فتنةٍ قَدْ أُسبِلت ظُلُماتُها بيد المظالمْ
عمهت لها أحلامنا وكأنّها أضغاث حالِم
وتضاءلت أجرامنا فيها بمُوبقةِ الجرائم
وتحوّلت فيها الذُّنا بى الرأسَ ، وابن المجد راغم
وأدار كلُّ صغيرٍ قد ر المُنتهى أرْحِيَ العظائم[1]
فكأنّنا عُمْيٌ نُسا قُ على العمى ، في ظلِّ عاتم
حتّى انتضى عبد العزيز عزيمةً من صدر عازم
ضربَ الأعاجمَ سُودَها بالصِّيد من بِيض الأعاجم[2]

---

١ الأرحي : جمع الرحى .
٢ بالصيد : في الأصل بالسد .

فاستجفلوا ! فكأنما ضَرب الثعالبَ بالضراغم
رَعْياً لمؤتَمَن ٍ رعى فينا الحدايثَ والقدايم
بدأت أوائله وعا دَ لكشفِ غاشيةِ الغياهم[1]
لا تَترُكَنْ صَرْمَ الزمانِ على ظُبى تلك الصوارم
وارمِ الخطوب بمثلها عزماً ، فأنت لها مُساهم

وتلقّى جواباً من المؤتمن يدعوه فيه إلى الالتحاق به ، فردّ عليه معتذراً لأنه لا يستطيع هجر قرطبة لتعلق قلبه بها :

« وقد كان أقلُّ حقوق مولاي أن أقف ببابه ، وأُخيّم بفِنائه ، وأُهدي إليه الشكر غَضّاً ، وأنثر عليه المدح نضّاً[2] . ولكني ممنوع ، وعن إرادتي مقموع ؛ يملِكُني سلطان قدير ، وأمير ليس كمثله أمير : شيء غلب صبر الأتقياء واستولى على عزم الأنبياء ، وهو العشق : باطلٌ يلعب بالحق ليَبين ضعفُ البشر ، وتلوحَ قدرة مُصرّف القَدَر . والذي أشكو منه أغرب الغرائب ، وأعجب العجائب : بثٌّ شاغل ، وبَرْحٌ قاتل ، وصبر بغيض ، ودمع يفيض ، لعجوزٍ بخراء ، سَهكة درداء[3] ، تدعى قرْطبة :

عجوزٌ ، لَعَمْرُ الصِّبا ، فانيهْ ، لها في الحشا صورة الغانيهْ
زنت بالرجال على سِنّها ، فيا حبّذا هِيَ من زانيهْ ! »

---

١ الغياهم : الظلمات .
٢ نضاً : خالصاً .
٣ سهكة : أي ذات رائحة كريهة . درداء : ذهبت أسنانها .

فقد أقعدته قرطبة عن السفر إلى ابن من رفعوا قدره وقدر أبيه ، فاجتزأ بتدبيج الرسائل ، وقرض أشعار الغزل والمدح ؛ ولعلّه لم يكن يتوقع له النجاح المأمول ، فلم يشأ أن يغرر بنفسه في الذهاب إليه ؛ والفتن في كُوَر الأندلس كالوباء العاصف تجتاح الكبير والصغير ، فآثر البقاء في بلده يستقبل خليفة ويودع خليفة ، ساعياً لأن يتصل بكلّ منهم ، على أمل أن يستعيد ما كان له من سابق العز في الدولة العامريّة .

عند المستعين

ولكن ليس في أخباره وآثاره ما يدل على اتصاله بالمهدي قاتل مولاه الناصر . ومن الطبيعي ألاّ يلقى حظوة عنده ، فيبتعد عن القصر مدّة خلافته إلى أن يتم الأمر للمستعين ، وتهدأ الفتنة الأولى في قرطبة بعد مقتل المهدي ، ومقتل المؤيد هشام بن الحكم ، فنسمعه يمدح المستعين بقوله :

لعلّ نسيم الريح تأتي به الصَّبا بنشر الخُزامى والكِباء المعبَّقِ[1]
كأنّ عليها نفحةً عَبشميّةً أتت من جناب المستعين الموفَّقِ[2]
فنلتَ الذي قد نلتَ ، إذ ليس للعلى سواك ، كأنّ الدهر للناس مُنتَقِ

١ الكباء : عود البخور أو ضرب منه .
٢ عبشمية : نسبة إلى عبد شمس أبي الأمويين .

على أن خصومه وحساده من الأدباء والوزراء لم يحجموا عن النيل منه لدى الخليفة الأموي ؛ حتى اتهموه بشعر قاله ، فأنكروه عليه ، أو شكوا فيه ؛ وفي رسالة التوابع والزوابع يشير إلى ذلك فيقول : «أما أبو محمد ، فانتضى عليّ لسانه عند المستعين ، وساعدته زرافة استهواها من الحاسدين ؛ وبلغني ذلك فأنشدته شعراً :

وبُلّغتُ أقواماً تجيش صدورهم ... عليّ ، وإني منهمُ فارغ الصدر
أصاخوا إلى قولي، فأسمعت مُعجزاً ... وغاصوا على سرّي فأعياهمُ أمري
فقال فريق : ليس ذا الشعرُ شعرَه ... وقال فريق : أيمُنُ اللهِ لا ندري »

ويبدو أن حاله ساءت عند المستعين ، فأخذ يعاتبه على طريقة المتنبي في عتاب سيف الدولة بقصيدته «واحرَّ قلباه» ؛ فإذا هو يشقى بحب الأمير ، ويشكو الحساد ويفاخرهم ، ويحذره من الندم إذا رحل عنه إلى قوم آخرين يكرمونه ، ويرعون حق العلى فيه . والظاهر أنه يُلمع إلى عليّ بن حمّود الذي جاء الأندلس من المغرب لينتزع الخلافة من المروانيين :

لئن وردتُ سُهيلاً غِبَّ ثالثةٍ ... لتَقرَعَنَّ عليَّ السنَّ من ندمِ

في خلافة الحموديين

بيدَ أنّه لم ينعم عند الحمّوديين في إبّان دولتهم ، فإن سعايات الخصوم والحساد أفضت به إلى السجن ، إما في عهد عليّ بن حمّود أو في عهد أخيه القاسم .

وله قصيدة أثبتها الفتح بن خاقان في كتابه « مطمح الأنفس » يشكو بها ما لحقه من الضيم والمهانة عند الخليفة العلوي ، منها قوله :

قريبٌ بمحتلِّ الهوانِ بعيدُ يجود ويشكو حُزنَه فيُجيدُ
نعى ضَرَّه عند الإمام ، فيا له عدوّاً ، لأبناء الكرام حسودُ[1]

ثم لم يلبث أن استقامت أموره في زمن المعتلي يحيى بن عليّ (٤١٢ هـ) يدل على ذلك كثرة مدائحه له . ولم يطل حكم المعتلي في قرطبة ، فإن عمه القاسم المأمون استعادها منه سنة ٤١٣ هـ ، كما مرَّ بنا ، وأكرهه على الفرار بسريره إلى مالقة ؛ فكان ابن شُهيد يكتب إليه بقصائد المدح والتهنئة ، منها قصيدة يهنئه فيها بانتصاره على السودان في وقعة إشبيلية :

أجريتَ للزَّنج فوق النهر نهرَ دمٍ حتى استحال سماءً جُلِّلت شفقا

ولما ثار أهل قرطبة على المأمون وقتلوه ، وبايعوا الأمير الأموي عبد الرحمن المستظهر ، وجد فيه أبو عامر فتى كريماً في الثالثة والعشرين من عمره يألفه ويأنس بأدبه ، ويرفع قدره كما رفع أقدار غيره من الوزراء بقايا بني مروان ، غير أنّه لم يملك سوى سبعة وأربعين يوماً حتى قُتل ، وبويع بعده للمستكفي ؛ وليس لدينا ما يدل على اتصال الشاعر بالخليفة الجديد ، وإنما نعلم أنّه لم ينقطع عن مكاتبة المعتلي ، وربما كان يكاتب المؤتمن أيضاً ؛ وله قصيدة يتظلم فيها من بني أمية ، ويرجو الخير عند الهاشميين بني حمُّود ، وقد أزمع على الخروج من قرطبة لاحقاً بيحيى بن عليّ في مالقة ، يقول فيها :

---

[1] حسود : فاعل نعى .

لئن أخرجتْني عنكمُ شرُّ عُصبةٍ ففي الأرض إخوانٌ عليَّ أكارمُ
وإن هَشَمتْ حقي أميّةُ عندها فهاتا على ظهر المحجّةِ هاشمُ[1]

مرضته الأخيرة

ولا نحسب أنّه هجر قرطبة طويلاً ، لأنّه لم يكن يطيق الابتعاد عن ملاهيها ولذاتها ، فجميع أخباره وأشعاره صادرة عنها ، وإن لم يبلغ إلينا منها ما يطلعنا على علاقته بالمعتدّ آخر الخلفاء الأمويين ، ولا ما كان من أمره بعد عودة الحكم إلى المعتلي ؛ وإنما نعلم أنّه اعتلّ في آخر عمره ، فلزمه الداء بضع سنين حتّى غلب عليه الفالج في مستهل ذي القعدة من سنة ٤٢٥ ﻫ وذلك نتيجة انغماسه في حياة الراحة والترف ، وإطلاقه العنان لشهوات النفس ، وإدمانه مجالس الشراب ، وإجهاده الفكر والأعصاب في النظم والتأليف . ولكنه لم ينقطع عن الحركة أصلاً ، فكان يمشي إلى حاجته معتمداً على عصا أو على إنسان ، إلى قبل وفاته بعشرين يوماً ، فإنّه صار يُنقل في المحفّة ، ولا يحتمل أن يُحرّك لعظيم الأوجاع ، مع شدة ضغط الأنفاس ، وعدم الصبر حتّى همّ بقتل نفسه ، وفي ذلك يقول :

أنوح على نفسي وأندب نُبلَها إذا أنا في الضَّرَّاء أزمعتُ قتلَها
رضيتُ قضاء الله في كلّ حالة عليَّ وأحكاماً تيقّنتُ عدْلَها
أظلُّ قَعيد الدار تَجنُبني العصا على ضعف ساقٍ أوهن السقمُ رجلَها

---

[1] هاتا : بمعنى هذه . تا اسم إشارة إلى المؤنث ، وها للتنبيه .

ومع ذلك لم يعطّل لسانه ، ولا انقطع عن قول الشعر ، فكان يراسل به أصدقاءه من الوزراء والأدباء . وقد أوصى أن يُدفن بجنب صديقه أبي الوليد الزجّالي ، وأن يُكتب على قبره في لوح رخام هذا النثر والنظم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون . هذا قبر أحمد ابن عبد الملك بن شُهيد المذنب ، مات وهو يشهد أن لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمّداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن البعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، مات في شهر كذا من عام كذا :

يا صاحبي ، قُمْ ، فقد أطلنا أنحنُ ، طولَ المدى ، هُجودُ ؟
فقال لي : لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصعيدُ
تذكرُ كم ليلةٍ لهونا في ظلّها ، والزمان عيد ؟
وكم سرورٍ همى علينا سحابةً ثرّةً تجود ؟
كلٌ ، كأنْ لم يكنْ ، تقضّى وشؤمه حاضرٌ عتيد
حصّله كاتبٌ حفيظٌ ، وضمّه صادقٌ شهيد
يا ويلنا إن تنكّبتنا رحمةُ مَن بطشُه شديد
يا ربِّ عفواً ، فأنت مولًى قصّر في أمرِكَ العبيدُ »

وما زال كذلك حتى توفاه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى من سنة ست وعشرين وأربع مائة وهي السنة التي قُتل بها المعتلي ، وكان في الرابعة والأربعين من عمره . قال ابن بسام : « ولم يُشهد على قبر أحد ما شُهد على قبره ، من البكاء والعويل ، وأُنشد على قبره من المراثي جملة موفورة لطوائف كثيرة . »

لهو ومجون

لم تشغل السياسة ابن شُهيد ، على تقلبها في عصره وتقربه إلى ذوي السلطان ، بقدر ما شغلته ملذات قرطبة وملاهيها ؛ فقد كان من أولئك الشبان الذين يتهافتون على ارتشاف عُسيلات الحياة لا يتورعون من مواقعة محرّماتها ، حفاظاً لدين، أو صيانة لكرامة . وتأتّى له من شرف المقام ، وبسطة العيش، ما جعله يطلق يديه في البذل والعطاء لاجتناء الطيبات ، واصطفاء الأحباب والخلان ، حتى شارف الإملاق ، وأتاح لأعدائه وحسّاده أن يصلتوا عليه ألسنة حداداً لدى الملوك والأمراء ؛ فألقاه ابن حمّود في غيابة السجن ، وكان مجونه من أسباب سخطه عليه ؛ وأراد أن يعتذر فلم يستطع إنكار ما نُسب إليه :

وما ضرَّه إلا مُزاحٌ ورِقّةٌ ثَنَتْهُ سفيهَ الذِّكر وهو رشيدُ
فإن طال ذكري بالمُجون فإنني شقيٌّ بمظلوم الكلام ، سعيد
وهل كنت في العشاق أوّلَ عاقل هوت بحِجاه أعينٌ وخدود ؟
وإن طال ذكري بالمجون فإنها عظائم لم يَصبِرْ لهنّ جليدُ !

وعلمنا أنّه بلغ رتبة الوزارة ، ولم يبلغ منزلة الكتابة في الديوان ؛ وزعم أن ثقل سمعه أخّره عنها ، وما كان ينبغي له أن ينسى فتكه وعبثه ، فإن الملوك يؤثرون في الكاتب العقل والرصانة على الهزل والمجون ؛ مع أنّه في كلامه على الجاحظ أضاف إليه خفة العقل ، وقال إنها قعدت به عن الكتابة ، كما قعد به عنها جحوظ عينيه :

« وربما أنكر منكر قولنا في شرط جمع أدوات الكتابة فقال : وأيّ أداة نقَصت الجاحظ ؟ فنقول : أوّلُ أدوات الكاتبِ العقلُ ، ولا يكون كاتب غير عاقل . وقد نجد عالماً غير عاقل ، وجدَليّاً غير حصيف ، وفقيهاً غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل إلى سهلٍ[1] أكثر من نسبته إلى الجاحظ . »

ورأيناه يأبى الخروج من قرطبة للقاء مولاه المؤتمن في مالقة ، مع حبّه له ، لأنّه لم يطق فراق تلك العجوز الزانية ، التي تقود إليه ضروب الملذات .

قال ابن بسام في صفة أخلاقه :

« منهم أبو عامر بن شُهيد فتى الطوائف ، كان بقرطبة ، في رقته وبراعته وظرفه ، خليعها المنهمك في بطالته ، وأعجب الناس تفاوتاً ما بين قوله وفعله ، وأحطّهم في هوى نفسه ، وأهتكهم لعرضه ، وأجرأهم على خالقه . »

وقال فيه ابن حيّان :

« غلبت عليه البطالة ، فلم يحفل في آثارها[2] بضياع دين ولا مروءة ، فحطّ في هواه شديداً ، حتى أسقط شرفه ، ووهّم نفسه راضياً في ذلك بما يلذّه ، فلم يقصّر عن مصيبة ، ولا ارتكاب قبيحة . »

وكانت النساء المحصنات تتجنب لقاءه ، وتبتعد عنه ، إذا رأته ، خشاة أن يتعرّض لهن بشعره فيفضحهنّ به . وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، فقعد فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان ، في جماعة من إخوانه ، فإذا امرأة من أعيان أهل قرطبة ، أطلت تتوارى بين جواريها ، وأمامها

---

١ سهل : أي سهل بن هارون .

٢ في آثارها : لعلها في إيثارها .

طفلها يرافقها إلى المسجد . فلمّا وقعت عينها على أبي عامر ، ارتدّت مولية عنه ، وكرهت أن تمر به ، ولكنها لم تسلم من معرّة لسانه ، فقد رآها مقبلة مدبرة ، فراقه منظرها على الحالين ، فقال فيها شعراً فضحها به وشهّرها ، على غير ذنب منها .

وذكر الفتح بن خاقان علّته في آخر حياته ، فرجا أن يكون له فيها كفّارة عن ذنوبه ، قال :

« وأحسب أن الله أراد بها تمحيصه ، وإطلاقه من ذنب كان قنيصه ، فطهره تطهيراً ، وجعل ذلك على العفو له ظهيراً ! »

ولم يكن ابن شُهيد في مرضه الأخير قد بلغ السن التي تضعف بها شهوات النفس ، ونزوات أهوائها ، ولا سيما من كان مثله حِلْس لهو ، وتِبْع نساء ، فظل ، على تحكّم الفالج بجثمانه ، وشعوره العميق بآثامه ، يحن إلى الماضي البهيج ، ويشتاق العيون السواحر ، فيقول ، حين همّ بقتل نفسه تخلصاً من الأوجاع :

عليكم سلام من فتًى عضّه الردى ولم ينسَ عيناً أثبتت فيه نَبلَها

ويقول أيضاً في علّته :

وليس عجيباً ان تدانت منيّتي ، يصدّق فيها أوّلي أمرَ آخري
ولكن عجيباً أنَّ بين جوانحي هوًى كشَرار الجمرة المتطايرِ
يحرّكني والموت يحفِز مهجتي ، ويهتاجني ، والنفس عند حناجري

ولم يزل قلبه يخفق للحب واللهو ، وتعتاده صبوة الشباب ، حتّى مات .

أصحابه وأهل مودته

هؤلاء الأصحاب منهم الأمراء ، ومنهم الوزراء ، ومنهم الأدباء ، جمعتهم قصور قرطبة ودواوينها ، ومجالس سياستها وأنسها ، وأيام نعيمها وبؤسها ؛ فكان أبو عامر نقطة الدائرة الأدبية في عصره ، يرفع الأمراء قدره ، ويخطب الوزراء صداقته ، ويتبارى الشعراء والكتّاب بمساجلته ، واستحثاث قريحته . فأخلص الود لمن وجد فيه المودّة والإخلاص ، فلم ينسَ العامريين في نكبتهم ، ولا كفر فضلهم بعد زوال نعمتهم ، وإفراط الأمويين عليهم ، بل لبث يشيد بذكرهم في شعره ورسائله ، ويتمنى رجوع دولتهم ، ويحض المؤتمن على الثورة ، وطلب الملك المفقود . وكذلك كان شأنه مع المعتلي يحيى بن عليّ بعد استيلاء عمّه المأمون على قرطبة . وأحب من الأمويين المستظهر بالله ، وكان أديباً شاعراً يعتزّ به الأدباء ويأنسون بمجلسه ، فحظي عنده مدّة خلافته القصيرة . وأخباره مع الحاجب أبي عامر بن المظفّر مأثورة ، كما يقول ابن حيّان ، فإن هذا الأمير لم يهجر قرطبة بعد انقضاء الدولة العامريّة ، فمضت له بها عيشة راضية ؛ يجتمع أهل الأدب في قصره ، ويشاركونه في لهوه ؛ ويخلّدون بأقوالهم آثاره ، ولا سيّما أبو عامر ابن شُهيد فإنّه كان ألهجهم بذكره ، وأكثرهم اختلافاً إليه . فمن جملة أخباره معه ما رواه ابن حيّان من أنّه شاهدهم ليلة في مجلسه ، وطُفَيلة صغيرة عجيبة الخَلق كانت تسقيهم ، تسمى أسماء ، عجبوا من مكابدتها السهر معهم على صغر سنها ، وحسن قيامها بخدمتهم ، فسأل ابن المظفّر أبا عامر بن شُهيد أن يصفها ، فقال :

أفدي أُسَيماء من نديمٍ ملازمٍ للكؤوس ، راتبْ

قد عجبوا في السُّهاد منها ، وهي ، لَعَمْري ، من العجائب
قالوا : تجافي الرقاد عنها ، فقلتُ : لا ترقد الكواكب

ولم يزل على اتصال به ، حتى استوحش ابن المظفّر من هشام المُعتدّ بالله . وخشي أن يطلبه بذنب نُسب إليه ، فخرج من قرطبة هارباً ، ثم التجأ إلى حصن على نهرها ، فأجاره صاحبه حرزة اليَصدرانيّ ، فأقام عنده في كمد وغصة إلى أن مات .

وأصحابه الوزراء كثرٌ ، وفيهم طائفة من الأدباء يمدحونه ويمدحهم ، ويساجلونه ويساجلهم ، أمثال الوزير الكاتب أبي المُغيرة عبد الوهّاب بن حزم ، « وكان هو وأبو عامر بن شُهيد خليلي صفاء ، وحليفي وفاء ، لا ينفصلان في رواح ومَقيل . » على حدّ تعبير الفتح بن خاقان ، ولم تكن صلته به دون صلته بابن عمّه الوزير الأديب ، والعالم الفقيه أبي محمد بن حزم صاحب كتاب الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل ، وكتاب طوق الحمامة في فلسفة الحب وصفاته . وكانا يتقارضان الشعر ، ويتهاديان المدح ؛ فمن قول أبي عامر فيه :

وأنتَ ابنَ حزمٍ مُنعشٌ من عِثارها إذا ما شَرِقنا بالجدود العواثرِ

وكتب إليه في علّته يقول :

فمَن مُبلغٌ عني ابنَ حزم ، وكان لي يداً في مُلمّاتي وعند مَضايقي :
عليكَ سلامُ الله ، إني مفارقٌ ، وحَسبُكَ زاداً من حبيبٍ مفارقِ[1]
فلا تنسَ تأبيني ، إذا ما فقدتني ، وتذكارَ أيامي ، وفضل خلائقي

---

١ وحسبك زاداً : أي وحسبك السلام زاداً .

فأجابه ابن حزم بأبيات منها قوله :

أبا عامرٍ ، ناديتَ خِلاً مُصافياً ، يُفدّيك من دُهم الخطوب الطوارقِ
وألفيتَ قلباً مُخلِصاً لك ، مُمحَضاً بودّك ، موصولَ العُرى والعلائقِ
فان تَنجُ ، قلتُ : الحمدُ لله مُخلِصاً ، فمن أعظم النُّعمى بقاء المُصادِقِ

وكان صديقه الوزير أبو مروان بن الجزيري يساجله في القريض معترفاً بفضله مع أنّه كان يومئذ في نحو الثانية عشرة من عمره ، لأن المظفّر عقد له على الشرطة وهو دون العاشرة ، وكان أبو مروان من وزراء الدولة . ثم غضب المظفّر على الجزيري ، فسجنه في المُطبَقِ ومات فيه مخنوقاً سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) وابن شُهيد في الثانية عشرة . فمساجلة أبي مروان له في الشعر ، وهو صبي ، تدل على نبوغه المبكر . فقد كتب إليه مرّةً يسأله عن الورد :

قُل للوزير الذي بانَتْ فضائلُهُ ، وقام فينا مَقامَ الغيث نائلُهُ :
أواخرُ الورد ، إذ تجنيه مُلتقِطاً ، أزكى وأعطَرُ نَشراً ، أم أوائلُهُ ؟

فأجابه :

يا سيداً ، أرِجَت طيباً شمائلُهُ ، وشاكهتْ شِعرَه حُسناً رسائلُهُ
وسائِلاً ليَ عمّا ليس يجهلُهُ ، ولا الذي كُلّفَ التفصيلَ جاهلُهُ
الوردُ عهداً ونشراً صنوُ عهدِك ، لا تُنسي أواخِرَه طيباً أوائلُهُ
ووصلُه، في كلا الحالين ، مُفتَرَضٌ ، سيّانِ قاطِعهُ جهلاً ، وواصِلُهُ

ورثى من أصدقائه الوزراء أبا عبيدة حسّان بن مالك ، وزير الخليفة المستظهر أيّام الفتنة ، فقال فيه :

أفي كل عام مصرعٌ لعظيمٍ ؟ أصاب المنايا حادثي وقديمي !

ورثى من القضاة صَفيّه أبا حاتم بن ذكوان صاحب المظالم في زمن المظفّر، وكان قسّيم نفسه، ونسيم أنسه، كما يقول الفتح في مطمح الأنفس، فقال :

يسيرُ به النّعشُ الأغرُّ وحولَهُ أباعِدُ راحوا للمصاب أقاربا
عليه حَفيفٌ للملائك أقبلت تُصافح شيخاً ذاكرَ الله تائبا

وقضى أيّامه الأخيرة، بعدما استبد عليه الفالج، وبات الموت يلاحظه، في نظم الأشعار وإرسالها إلى أصحابه ؛ قال ابن بسّام : وبلغني أن آخر شعر قاله يودّع إخوانه هذه الأبيات :

أستودع الله إخواني وعِشرَتَهُمْ وكلَّ خِرْقٍ إلى العَلياء سَبّاقِ[1]
وفِتيةٌ كنجوم القذف نَيّرُهُمْ يَهدي، وصائبُهم يُودي بإحراقِ[2]
وكَوكَباً ليَ منهم كان مَغربُهُ قلبي، ومَشرِقُهُ ما بين أطواقي
اللهُ يَعْلَمُ أني مَا أُفارقه، إلاّ وفي الصدر مني حَرُّ مشتاقِ
كنّا أليفَينِ خان الدهرُ أُلفَتَنا، وأيُّ حُرٍّ على صرفِ الردى باقِ ؟
فإن أعِشْ، فلعلَّ الدهرَ يجمعنا، وإن أمُتْ، فسيَسقيه كذا الساقي
لا ضَيَّعَ اللهُ إلاّ من يُضيِّعُهُ، ومن تَخلّقَ فيه غيرَ أخلاقي !
قد كان بَرْدي، إذا ما مَسّني كَلَفٌ، لا يثلِمُ الحبُّ آدابي وأعراقي

---

١ الخرق : الفتى السخي الظريف، والكريم الخليقة .
٢ نجوم القذف : أي الشهب التي قذفت بها شياطين الجن، فأحرقتهم، كما جاء في القرآن .

حتّى رمتْنا صروفُ الدهرِ عن كثبٍ ففرّقتنا ، وهلْ من صَرفِهِ واقِ ؟
إنّي لأرمُقُهُ ، والموت يَضغَطُني ، فأقتضي فُرجةً مُرتدّ أرماقي

وكانت وصيته قبل وفاته أن يُدفن بجنب صديقه أبي الوليد الزجّالي .

خصومه وحساده

بلغ ابن شُهيد ، في زمانه ، منزلة أدبية بشعره ونثره رفعت قدره ، في قصور الأمراء ، على أقدار أقرانه ، فأوت إليه جماعة المعجبين به تَلْتَفُّ لِفّه وتشيد بذكره ، فناله ما ينال الأدباء من الزهوِ والاعتداد بالنفس ، فتنكّر له جماعة من أبناء طبقته وأهل حرفته ، وحسدوه على نعمة من خفيض العيش يتقلب فيها ، وهِبَة من توقّد الذهن يشتمل عليها : نعمة الأرض ، وهبة السماء . فراحوا يسعون به لدى الملوك ، وينتقصون شعره وأدبه وأخلاقه ، حتّى حبسه ابن حمّود ، وأعرض عنه المستعين . وقد مرّ بنا كيف اعتذر من مجونه ، وذاد عن شعره ، وأزرى على حاسديه . ويذكر في رسالة التوابع والزوابع ثلاثة أشخاص لا يملّون من الطعن عليه ، وهم أبو محمد وأبو القاسم وأبو بكر . فأبو محمد انتضى عليه لسانه عند المستعين ، واتّهم شعره وشكّ فيه . ولا نعلم من الأدباء من يكنى بهذا الاسم ، وله صلة به ، غير أبي محمد بن حزم ، وكان صديقه كما ذكرنا ، وليس في أخبارهما ما يدل على تخاصمهما في بعض الأوقات ، وإنما كان بينهما مكاتبات ومداعبات ، على ما أنبأنا ابن خلّكان . ومن معاصريه القاضي أبو محمد عبد الله المعروف بابن الفَرَضي ويكنى أيضاً أبا الوليد ؛ تولّى القضاء في دولة المهدي ، وقتله البربر يوم استيلاء المستعين على قرطبة ، سنة أربعمائة للهجرة ، بحسب رواية

الذخيرة ؛ غير أن نفح الطيب يجعل مقتله في سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) فيكون قد أدرك خلافة المستعين الأولى وهو رجل ذو حظ من الشعر والأدب ، ولكن لم تُعرف له علاقة صداقة أو خصومة بأبي عامر بن شُهيد ، فبالأولى أن يكون المقصود أبا محمد بن حزم لسلاطة لسانه ، وقد يحدث أمثال هذه الهنات بين الأدباء، وإن كانوا أصدقاء .

وليس في التعريف بأبي القاسم مجال للاجتهاد والتخمين ، كما هي الحال في أبي محمد ، فقد صرح ابن شُهيد باسمه في رسالته إذ قال : « وأما أبو القاسم الإفليلي ، فمكانه من نفسي مكين ، وحبه بفؤادي دخيل ؛ على أنّه حامل عليّ ، ومنتسب إليّ . » وأبو القاسم هذا من أئمة النحو واللغة بالأندلس ، كثير الحسد والغرور ، يجادل على الخطإ ويتشبّث به معانداً . وخصّه أبو عامر بمكان من رسالته في عالم الجن ، لينتقده وينتقم منه ، فأقام له تابعاً سمّاه أنفَ الناقة ، وأخذ يناظره ويُسمعه من كلامه حتى أخزاه ، فقال : « وعلت أنفَ الناقة كآبةٌ ، وظهرت عليه مهابة ، واختلط كلامه ، وبدا منه ساعتئذ بَوادِرٍ في خطابه رحمه لها من حضر ، وأشفق عليه من أجلها من نظر . »

على أن الإفليلي ، وإن تحامل على أبي عامر ، لم يكن ينكر عليه أدبه ، وبصره بمذاهب الكلام ، فقد عرض عليه يوماً بعض المتأدبين شعراً له استعمل فيه وحشيّ اللفظ ، فقال له : « تنكّبْ عن هذا الكلام . » فقال : « إن أبا عامر يستعمله . » فقال : « يضعه في موضعه ، وهو أدرى منك في استعماله . »

وأما أبو بكر فشأنه شأن أبي محمد في الالتباس والغموض ، فقد يكون أبا بكر ابن حزم ، ولا نعرف عنه شيئاً سوى أن أبا عامر صدَّر رسالة التوابع والزوابع بمخاطبته ، وذكر أنه حين سمع كلامه تعجب وقال : « كيف أوتي الحُكم صبيّاً ، وهز بجذع النخلة فساّقط عليه رُطَباً جَنيّاً ؟ ! » وقد يكون أبا بكر

عُبَادةَ بن ماء السماء ، وهو من مشاهير شعراء قرطبة ووشّاحيها ، لحق الدولة العامريّة والدولة الحمُّوديّة ، ويقول ابن شُهيد إنّه توفّي بمالَقة سنة ٤١٩ هـ . وقد يكون الكاتب أبا بكر المعروف بأشكمياط ، وهو من الذين نقدوا أبا عامر وعابوه باستباحة كنوز غيره . روى ابن بسام أنه عرُضت عليه فصول من كلامه ، فقال : « فِقَرٌ حِسان إلاّ أنّه عثر عليها . » فوصل خبره إلى ابن شُهيد ، فكتب إليه بما ملخّصه : « ما أغْيرَكَ أبا بكر ، على نظم ونثر ، لو إليك كان العلم ، أو بكفّك كان الفهم . . . عرضتُ عليك الدُّرَّ منظوماً ، فقلتَ : نعمَ ما صنعتَ لو اخترعتَ ، وما أحسن ما أطلعتَ لو ابتدعت ، مُعرِّضاً بالتقصص[1] ، ومشيراً إلى التلصص . . . لأقطعنَّ حبالك هاجراً ، ولأتركنَّ ليلك ساهراً ! »

وله رسالة إلى أبي القاسم الإفليلي يشكو فيها تغيّرَه عليه ، ويعزو ذلك إلى جعفر بن محمد بن فتح ، فيقول : « فبحثت عمن طرأ عليك من الأنذال ، وحلَّ بساحتك من الأعلاج ، فقيل لي : ابن فتح ؛ فأنعمتُ البحث ، وأعملت لطائف الكشف ، حتى صح عندي أنّه كدّر صفوك عليَّ ، وغيّر شِرْبَك[2] لديّ ، فقلت من هاهنا أُتينا ، ومن هذه القوس اللئيمة رُمينا ، وقَصَصي مع هذا العلج طويل . »

وكان ابن فتح ينتسب إلى بني هاشم ، فتقرب إلى يحيى بن عليّ المعتلي، وقدَّم إليه صديقه أبا القاسم الإفليلي ، ورفع قدره في حضرته . والظاهر أنّه كان يكره أبا عامر ، فاستطاع أن يبعد الإفليلي عنه بما له عليه من الدالة والتأثير . قال ابن

---

١ التقصص : التتبع .

٢ الشرب بالكسر : الماء .

شُهيد في رسالته : « ولولا أنّه منتسب إلى آل هاشم، إلى عصابة أقلّني كرمهم ، وأظلتني نِعمهم ، ومُسنَدٌ ، على العِلاّت ، من أبي جعفر[1] إلى وزير كان لي وَزَراً[2] ، رقرق شرابي ، وأخصَب به جنابي ، لأدرتُ بداره دائرة السوء ، وسريتُ إليها في لُمّة[3] من صعاليك الأحرار ، وصميم الرجال ، فأحرقتها على نازلها ، وجعلت عاليها سافلها . . . فاللهَ اللهَ في قَبول هذا القرد والالتباس به ، فإنّه قُدَار[4] مَن لزمه ، وهو والفَرَضيُّ رضيعا لِبان ، وفرسا رهان . »

والفَرَضيُّ الذي يذكره هنا ، ويجعله صنواً لابن فتح في عدائه وسوء أخلاقه ، هو الوزير الكاتب خالد بن يزيد الكيميائي أبو عبد الله الفَرَضي . وكان الاشتغال بالكيمياء يومئذ غير محمود عندهم ، ولا يسلم صاحبها من التهمة بدينه وخُلقه ، ويخبرنا ابن شُهيد في بعض رسائله أن لدى الفَرَضي حشائش استفادها من كيميائه يستعملها في الشر والفتك . ويقول إنّه قصده مرّة على غير موعد ، فانكشف له ما يخفي من أمر اشتغاله بهذه الصناعة ، فأطلع عليه أحد ثقاته ، فأذاعه بين الناس ، فحقد عليه الفَرَضي ، وصار يسعى إلى ضرره . قال :

« وقصدته يوماً ، على جهل بتلك الخليقة منه ، لأستريح إليه ، وأُلقيَ من شيئي عليه ، فألفيته قد خلا بابه ، وغاب بوّابه ، فولجت ، فثار إليَّ صبيٌّ غرير أصبتُه هنالك ، قائلاً لي : « طال انتظارنا لك ! » وتقدمني ، وسرت ، حتى

---

١ أبو جعفر : أي أبو جعفر الهاني ، كان وزيراً كاتباً لعلي بن حمود .

٢ وزراً : موئلا .

٣ اللمة : الجماعة .

٤ قدار : عاقر ناقة صالح ، كان شؤماً على قبيلته ثمود .

انتهيتُ إلى دار ذات أجوان[1] ، قد غشيها دُخان كقِطَع العَنَان[2] ، تَعبَق منها صُنَانٌ من زَرنيخ وكِبريت ، وزَنجفور[3] وأنزروت[4] ، فتذكرت « يوم تأتي السماء بدُخانٍ مُبينٍ يغشى الناس ، هذا عذابٌ أليمٌ . » فاستشعرتُ الشرَّ ، وأردتُ الفرَّ ، ثم التفتُّ ، فإذا أنا بأكداس جمر ، وآلات تِبر ، وأشخاص سود وصُفر ، ثم أفضيتُ إلى بيت فيه عِدَّة أشباح ، كأنّها قُبّاض الأرواح ، غرابيب[5] ، بأيديهم كلاليب ، رزادق[6] ، قد تقلدت مطارق ؛ فلمّا رأوني صاحوا : « فضحكم الواغل[7] ، فامْحَقوه من عاجل ! » فلمّا نظرت إلى المَنيّة ، وخشيتُ فصل القضيّة ، ضحكتُ إليهم وقلت : « تخطّتكم النعمة ، ولا هُديتم سبيل الحكمة ، أهكذا تَعجَلون ، ولا تدرون من تُريدون ؟ » قالوا : « ومن أنت ؟ » قلت : « من أخذ الطَّلْق[8] ، فسحَقه بالمِدَق ، وشق بيد الذكاء ، عن زهرة الأشياء ، فبشّر الآباء بالأبناء . » فقالوا : « بنار أم بماء ؟ » قلت :

---

١ الأجوان : جمع جون كأرطاب جمع رطب بضم ففتح ، مفردها جونة ، وأصلها الهمز ، وهي سفط مغشى بجلد ، ظرف لطيب العطار ، ويطلق على الخابية .

٢ العنان بالفتح : السحاب .

٣ الزنجفور : المعروف أنه يقال له الزنجفر ، وهو معدن متفتت برصاص يعمل منه الحبر الأحمر ، ويتبخر به لنوع من القمل يتشبث بالجلد .

٤ الأنزروت : صمغ فارسي ، ويقال له أيضاً عنزروت .

٥ الغرابيب : جمع غربيب ، وهو الأسود اللون ، والشيخ يسود شيبه بالخضاب .

٦ الرزادق : صفوف الناس .

٧ الواغل : الداخل على القوم في طعامهم وشرابهم .

٨ الطلق : الشبرم ، وهو نبات له حب كالعدس ، وأصل غليظ ملآن لبناً ، يسهل البطن ، واستعمال لبنه خطر . وإنما يستعمل أصله مصلحاً ، بأن ينقع بالحليب ويخلط بغيره من العقاقير ، ويصنع منه دواء . وشجر ذو شوك يقال إنه ينفع من الوباء .

« بهما جميعاً ، وبهواء . » فأومضوا[1] إليّ ضاحكين ، واستقبلوني معتذرين ، وقالوا : « كِدتَ ، واللهِ ، أن تَلْتَهم ، وتكون السواد[2] المُختَرَم[3] ! » قلت : « وأين أبو عبد الله ؟ » قالوا : « انفرد يُرَقّق ماء بَيض ، ويصفّق دم حَيض ، وغرضه استخراج دُهن الحجر الكريم[4] . » فقلت : « نفسٌ[5] حديثٌ أو قديم ؟ » فنادوا : « أوّاه ، أوّاه ! على الخبير سقطتم ! » ثم تلطفتُ وخرجت ، تطير بي رجلاي ، وقد حقن الله دمي بعطفه ، واستنقذني من يدَيْ منيّتي بلطفه . ووصفت لمن استوثقتُه ذلك بعد أن استكتمته ، فجاس[6] وخاس[7] ، وكأني أودعتُ سري ريحاً . فاضطغنَ ذلك عليّ ، وأكد ذلك معاملةٌ عاملني بها أيّام حرب المدينة ، وكانت حبالها ، إذ ذاك ، منينة[8] ، أعقبَته وقعَ السوط على رأسه ، وعضَّ الحِجل[9] على ساقه، وكان الأمير بها أبو أيّوب[10] بن المرتضى ، رضي الله عنهما ! »

وهذه الرسالة كَتب بها أبو عامر إلى صديقه الموفق ، أبي الجيش مجاهد أمير دانية ، وذكر فيها أن وطأة الفَرَضي اشتدت أيّام المستظهر ، فحاول الإيقاع به ، فنحله شعراً في هجائه ، فوقاه الله شره ، وردّ عنه أذاه ، ولم تنجح مكيدته

---

١ أومضوا : أشاروا .
٢ السواد : الشخص .
٣ المخترم : من أخذته المنية .
٤ الحجر الكريم : أي الحجر الفلسفي .
٥ النفس : الحيض ، من نفست المرأة كسمع ، أي حاضت .
٦ جاس : طلب الشيء بالاستقصاء ، وتردد خلال الدور والبيوت .
٧ خاس : غدر وخان ، وأخلف بالعهد .
٨ منينة : مقطوعة .
٩ الحجل بالكسر : القيد .
١٠ أبو أيوب : الخليفة المستعين .

عند الخليفة لأن ابن شُهيد كان مقرّباً إليه . ويلتمس من الموفّق ألاّ يصغي إلى وشاياته وأكاذيبه ، فيقول :

« فكيف يصغي الموفّق ، أيّده الله ، إلى رجل هذه صفته ، وبيني وبينه ما قد شرحته وأوضحته ؟ فليُجِرني من قبول حديث هذا الخبيث فيّ ، وإصغائه إلى كذبه عليّ ، وليُجِرْ نفسه من عاديته ، وينظُرْ من وجه فائدته ، يجدْه أشقى الأشقياء ، وأضعف الضعفاء ! »

ومن منافسيه الأدباء أبو جعفر أحمد بن عبّاس وزير زهير الصّقلبي صاحب المَرِيّة ، وكاتبُ ديوانه ؛ وكان كثير الصلف والتيه ، شديد الإعجاب بنفسه ؛ فلمّا دخل زهير قرطبة زمن الفتنة أظهر أبو جعفر من الكبر وسوء الخلق ما كرّه الناس به . قال ابن بسام : « وحسبك من جهله وعُجبه أنْ عامَلَ أهلَ قرطبة الذين فيهم متتماه ، وهم بقيّة الناس ، أيّام دخلها مع زهير صاحبه ، بأسوإ ما عنده ، فحجب كبيرهم أبا عمر بن أبي عبدة من غير عذر ، وما عُرِف عبّاس أبوه إلاّ بخدمة ابن عمّه ، وتنقّصَ أديبهم أبا عامر بن شُهيد ولم يكن يحسن مستملياً له . »

ويحدثنا ابن شُهيد عما جرى له معه فيقول :

« لمّا قدم زهير الصقلبي ، فتى بني عامر ، حضرة قرطبة من المريّة ، وجّه أبو جعفر بنُ عبّاس وزيرُه عن لُمّةٍ من أصحابنا ، منهم ابن بُرد ، وأبو بكر المرواني ، وابن الحَنّاط ، والطُّبْنيّ ، فسألهم عني ، وقال : « وجّهوا عنه . » فوافاني رسوله مع دابّة له بسرج مُحَلّى[1] ثقيل ؛ فسرت إليه ، ودخلت المجلس ، وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولي وقاموا جميعاً إليّ ؛ حتى طلع

---

[1] محل : في الأصل جلي ، والتصحيح للجنة المصرية عن نفح الطيب .

أبو جعفر علينا ساحباً لذيلٍ لم يُرَ أحدٌ سحبَه قبله ، وهو يترنم ، فسلّمت عليه سلام من يعرف حقّ الرجال ، فردّ ردّاً لطيفاً ، فعلمت أن في أنفه نُعَرةً[١] لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تُراض إلا بمُستحصِد[٢] النظام[٣] . فرأيت أصحابي يُصبخون إلى ترنّمه ، فسألتهم عن ذلك ، فقال لي الحنّاطيُّ ، وكان كثيرَ الإنحاء عليّ ، جالباً في المحافل ما يسوء الأولياء ، إليّ : « إن الوزير حضره قَسيمٌ من شعره ، وهو يسألنا إجازته . » فعلمت أني المراد . فاستنشدته ، فأنشده ، وهو :

مرَضُ الجفونِ ، ولَثغةٌ في المَنطِقِ

فقلت لمن حضر : « لا تُجهدوا أنفسَكم ، فلستم المُرادَ . » فأخذت القلم وكتبت بديهة :

مرَضُ الجفونِ ، ولثغةٌ في المنطِقِ ، سيّانِ ، جرّا عِشقَ من لم يَعشَقِ
مَن لي بألثغَ لا يزال حديثُه يُذكي ، على الأكبادِ ، جمرةَ مُحرِقِ
يُنْبي ، فينبو في الكَلامِ لسانُه ، فكأنّهُ من خَمْرِ عينيه سُقِي
لا يُنعِشُ الألفاظَ من عثَراتها ولوَ انها كُتِبتْ له في مُهرَقِ[٤]

ثم قمت عنهم ، فلم ألبث أن وردوا عليّ ، وأخبروا أن أبا جعفر لم يرضَ ما جئنا به من البديهة ، وسألوني أن أحمل مكاوي الكلام على حِتاره[٥] . وذكروا

---

١ النعرة : الخيلاء والكبر .
٢ المستحصد : الحبل المستحكم .
٣ النظام : أي تأليف الكلام ، من نظم اللؤلؤ .
٤ المهرق : الصحيفة .
٥ الحتار : حرف الجفن ، وحلقة الدبر .

أن إدريسَ هجاه فأفحش ، فلم أستحسن الإفحاش ، فقلت فيه معرّضاً ، إذ التعريض من محاسن القول . »

والأبيات فيها فحش كثير ، فما يحسن إثباتها ؛ قال ابن بسام : « وليت شعري ما التصريح عند أبي عامر ، إذا سمي هذا تعريضاً ؟ ولولا أن الحديث شجون ، والتتابع فيه جنون ، والكلام ، إذا لان قيادُه ، سهُل اطّرادُه ، وإذا قرب بعضُه من بعض ، لم يُفرَّق فيه بين سماء وأرض ، لما استجزْتُ أن أشين كتابي بهذا الكلام البارد معرِضُه ، البعيد من السداد غرضُه ، وقد يطغى القلم ، وتجمح الكَلِم . »

ونعلم من حديث أبي عامر عن الوزير ابن عبّاس أن الحنّاطي كان كثير الإنحاء عليه ، جالباً إليه في المحافل ما يسوء الأولياء . وصاحبه هذا هو أبو عبد الله بن الحنّاط الضرير ، أحد زعماء النظم والنثر في عصره . قال ابن بسام : « وكانت بينه وبين أبي عامر بن شُهيد بعد تمسكه بأسبابه ، وانحياشه — كان — إلى جنابه ، مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر بالماء ، وأخذت عليه بفروج الهواء . »

ولدينا من هذه المناقضات واحدة للحنّاطي يصف بها زهو أبي عامر وخُيلاءه واعتداده بنفسه ، عائباً عليه إسهابه وتطويله ، قال :

« الإسهابُ كُلفةٌ ، والإيجاز حِكمة ، وخواطرُ الألباب سهامٌ ، يُصاب بها خواطر الكلام ؛ وأخونا أبو عامر يُسهب نثراً ، ويطيل نظماً ، شامخاً بأنفه ، ثانياً من عِطفه ، متخيّلاً أنّه قد أحرز السَّبْق في الآداب ، وأوتي فصل الخطاب ، فهو يستقصر أساتيذ الأدباء ، ويستجهل شيوخ العلماء . »

ويقول في مكان آخر داعياً إيّاه إلى معارضته ، متوقعاً عجزه عن اللحاق به :

« فأنشدْها أخاك الشُّهيديّ ، وكلّفْه على العَروض والقافية معارضَتَها ، وحمِّله على اللين والشدة مقارضَتَها ، فستوقد بقلبه قَبَساً ، وتضرب في أُذنه جَرَساً ، فيتبيّنُ به حظَّه ، ويعرف لغيره فضله . »

فهؤلاء الخصوم والحساد أقضّوا مضجع ابن شُهيد ، وكدّروا صفو حياته السياسية والاجتماعية ، وأقلقوا حياته الأدبية باعتراضاتهم ومناقضاتهم ، فشغلوا جانباً من شعره ورسائله ، وحملوه على اصطناع النقد ، وتصنيف رسالة التوابع والزوابع .

أدب ابن شهيد

الشاعر

الشعر في بيت أبي عامر عريق النّجار ، متلاحق الآثار ، فأبوه عبد الملك شاعر ، وكذلك جدّه مروان ، وجدُّ أبيه أحمد بن عبد الملك ، ثم عمّه وأخوه شاعران . وهو أجودهم شاعرية ، وأخصبهم قريحة ، وأطولهم نفَساً ، وأوسعهم شهرة ، ولكن لم يُجمَع شعره في ديوان ليُحفظ من الضّياع ، أو جُمع ولم يصل إلينا ، وإنّما بلغنا منه ما رواه ابن بسّام في الذخيرة ، والثعالبي في يتيمة الدهر ، والفتح بن خاقان في مطمح الأنفس ، والمَقّري في نفح الطيب ، وابن خلّكان في وفيات الأعيان . فكان لنا جملة صالحة من القصائد والمقطّعات والأبيات على اختلاف أبوابها وأغراضها ، مع أن المؤرخين اقتصروا على الاختيار ، فقلّما أثبتوا قصيدة كاملة ، حتى إن ميميته الطويلة التي دوّن ابن بسّام منها نحو ثمانين بيتاً ، لم تخلص إلينا بتمامها ؛ وكان ابن الحنّاط يعيبه بتطويل الشعر كما مرّ بنا آنفاً .

بيد أن ما وصل إلينا من شعره كاف لأن يطلعنا على صفاته العامة والخاصة ، ويجيز لنا دراسته وإبداء الرأي فيه ، لأنّه يشتمل على مختلف أغراضه ومسالكه في نواحي التفكير والتعبير . فقد طرق من الأبواب والأغراض ما طرقه الشعراء في عصره وقبل عصره ، فمدح ورثى وهجا ، وافتخر وتغزل وشكا ، ووصف

المرأة ومجالس اللهو والشراب ، والطبيعة والصيد ؛ وطلب الجديد في انسحابه على أذيال القديم دون أن يكون له أسلوب شخصي يميّزه من غيره ، إذا ذُكرت أساليب الشعراء . ومن غريب أمره أن يأخذ على أقرانه تصدبرهم قصائد المدح بعرائس الشعر القديم ، ولا يرى غضاضة في وقوفه على الطلول وذكر الديار والمطيّ ، وهو نزيل القصور ، وربيب الحضارة الأندلسيّة . قال :

« وممّا يلزم المدّعيّ لصناعة الكلام ، إذا اعتمد وصف حالة ، أن يستوفي جميعها ، ويكون ما يطلبه من الإبداع والاختراع فيها غير خارج عنها وما هو بسبيلها ، فذلك أبهى لكلامه ، وأفخم للمتكلم به ، وأدلُّ على أن الكلام له ، لا كما شهدته يوماً عند ابن حمّود ، وقد صدر عن ابن الشّرب ، ومدّحه عدة شعراء ، صدورُ أشعارهم لزينب والرباب ولميس وفرتني ، وأعجازُها للجود والكرم وبذل اللُّهى ، ولم يُلمِمْ أحد منهم بذلك الغرض والمغزى إلاّ في بيتين أو ثلاثة ؛ فأنشدته أنا يومئذ من جملة قصيدة أولها :

فريقُ العِدى من حدّ عزمكَ يفرَقُ ، وبالدهر ممّا خافَ بطشَكَ أولَقُ[1] »

وهذا النقد جميل يدل على بصره بالشعر ومذاهبه ، ولكنه إذا طابق قصيدته هذه ، فلا يطابق سواها مثل قوله في مدح المؤتمن :

هاتيكَ دارُهمُ ، فقِفْ بمَعَانها تجدِ الدموع تجِدُّ في هَمَلانها[2]
عُجنا الرّكّابَ بها ، فهيّجَ وجْدَنا دِمَنٌ ذَعَرنَ السِّربَ من أدَمانها[3]

---

١ الأولق : الجنون ، وما يشبهه .
٢ المعان : المنزل .
٣ الأدمان : الرماد والسرقين المتلبد .

فقد غلب الأسلوب القديم على استهلالاته ، وأسلكه في نظام المحافظين على عمود الشعر التقليدي ، فسار على خطتهم في الوقوف والبكاء وذكر الدمن والآرام ، واستمد من كلام المتقدمين ألفاظه ومعانيه ، فحفلت أشعاره بالرواسم المجسَّدة ، والجمل الجاهزة ، فكان فيها مشترك الفكر والخيال والتعبير :

أمّا الرياحُ بجوّ عاصمْ فحلّبنَ أخلاف الغمائمْ

•

خليليّ عُوجا ، بارك الله فيكما ، بدارتها الأولى نُحيّ فِناءها

ولم يقتصر في التناول على الشائع العام من كلامهم ، بل جاوزه إلى الشخصيّ الخاص الذي يُعَدّ أخذه من السرقات الأدبية ، فاستباح أنعام البدو وكنوز العبّاسيّين ؛ فإذا وصف الصيد على طريقة امرىء القيس ، وذعّر الوحش بجواده ، وأكل الشواء مثله ، لا يغفل عن تمسيح الأكفّ بعد الطعام :

نُمَسِّحُ بالحَوذان منه أكفّنا ، إذا ما اقتنصنا منه غير قليلِ[1]

وإنما فعل ذلك اتّباعاً للملك الضلّيل حيث يقول :

نَمُشُّ بأعراف الجيول أكفّنا ، إذا نحن قمنا عن شواء مُضهّبِ[2]

ووصف خيل ابن حمّود في الحرب ، فلم يتحرج من الإغارة على أبي

---

١ الحوذان : نبت نوره أصفر .

٢ المضهب : اللحم المقطع ، والمشوي على حجارة محماة ، ولم يبالغ في نضجه .

الطيّب المتنبي ، قال :

وخيلٍ تمشّى للوغى ببطونها ، إذا جعلت بالمرتقَى الصعب تزلقُ

قال ابن بسام : « وهذا البيت ممّا لم يُحسن أبو عامر سرقته ، ولا بلغ به طبقته ، وهو من قول أبي الطيّب :

إذا زَلِقتْ ، مشّيتَها ببطونها ، كما تتمشّى في الصعيد الأراقمُ

وربما حاول إخفاء سرقته بتفصيل المعنى وتطويله ، فقد سمع الرماديَّ ، وهو شاعر أندلسي ، يقول :

ولم أرَ أحلى من تبسّمِ أعينٍ ، غداةَ النَّوى ، عن لؤلؤٍ كان كامنا

فأعجبه تبسم العيون عن لؤلؤ الدمع ، فقال :

ولما فشا بالدمع من سرٌ وجدنا إلى كاشحينَا ما القلوبُ كواتمُ
أمرنا بإمساكِ الدموعِ جفونَنا ، ليشجَى بما تطوي عذولٌ ولائمُ
فظلّت دموع العين حيرى كأنها ، خِلالَ مآقينا ، لآلٍ تَوائِمُ
أبى دمعُنا يجري مخافةَ شامتٍ ، فنظّمه بين المحاجر ناظِمُ
وراق الهوى منّا عيونٌ كريمةٌ ، تبسّمنَ ، حتى ما تروق المباسِمُ

وليس من غرضنا أن نتقرى سرقات ابن شُهيد واحتذاءاته ، وإنما أخرجنا أمثلة منها لندل بها على شيوع بنات أفكاره وضعف حصانتها . ومن ذلك معارضاته للشعراء ، يبني قصائده على بحور قصائدهم وقوافيها ، ويأخذ من معانيها وألفاظها ،

فيشبه شوقي من هذا القبيل ، أو شوقي يشبهه ، فقد عارض رائيّة ابن أبي ربيعة مترسماً طريقه إلى صاحبته بقوله :

وأخرى اعتلقنا دونهن ، ودونها قصورٌ، وحُجّابٌ، ووالٍ ، ومعشرُ
يُزيّنّها ماء النعيم ، وحفّها من العيش فَينانُ الأراكة أخضرُ
إذا رامها ذو حاجة ، صدّ وجهَهُ ظُبى الباتراتِ والوشيجُ المكسّرُ
تكلّفتُها ، والليلُ قد جاش بحرُهُ ، وقد جَعلتْ أمواجُه تتكسّرُ ،
إلى بيت ليلى، وهو فردٌ بذي الغضا ، يُضيء كعين المستهامِ ويَزهَرُ

وعارض بائيّة البحتري بقوله : « هذه دار زينب والرّبابِ » وقد قال أبو عبادة :

ما على الرّكبِ من وقوف الرّكابِ في مَغاني الصِّبى ، ورسمِ التّصابي

وأمثال هذه المعارضات وما يشاكلها كثير في شعر أبي عامر ، فما يفتأ يذكّرك بغيره ، فتلقاه تابعاً لا متبوعاً ، ومن أجلها انكشفت مقاتله لخصومه ، فرموه بقوارص النقد ، وشكّوا في شعره ، وعابوا أخذه عن غيره ، فدافع عن نفسه في رسالة التوابع والزوابع ، إذ جعل شيطانَ المتنبي يقول فيه : « سمعت أنّه يتناول . » فيرد عليه بقوله : « للضرورة الدافعة ، وإلاّ فالقريحة غير صادعة ، والشفرة غير قاطعة . »

ورأينا أنّه لم يتوكأ على القدماء وحدهم، بل تساند إلى المحدثّين أيضاً؛ فشعره مزيج من جاهلي إسلامي ، وعبّاسي أندلسي ، كسائر الشعراء المولّدين في الشرق والغرب . ولئن عداه الطابع الخاص في أسلوبه المشترك ليُعرف به كغيره من

ذوي الطوابع الشخصيّة ، لم يَعدُه النَّفَس الشعري ، والحسّ المرهف ، وبراعة الوصف ، وحسن التركيب ، فإذا قرأت شعره ، وغابت عنك فيه قوة الإبداع ، ومُعجزة الاختراع ، تروقك منه نفحات زكيّة الشعور ، دقيقة التصوير ، محكمة التعبير ؛ فيها من الحياة والحركة واللون والنَّغَم ما يجيز له الوقوف بجانب الشعراء المحسنين ، على اعتدال درجة الإحسان ، وانخفاضها عن درجة الإبداع .

والشعور عنده لا يتعدّى الإحساس بالشيء ، ميلاً إليه أو نفوراً منه ؛ فما هو بالعاطفة المتدفقة ، ولا الروحانيّة العميقة . وتصويره قريب المأخذ ، يسيرُ التلوين ، تكتنفه المادة ، ولا يخلو عنه الإحياء والتشخيص ، كوصفه للورد في رده على الوزير أبي مروان . قال ابن بسام : « وقد ضارع أبو عامر هذا محاسن الطبقة العالية البغداديّة المضارَعةَ التي بانت فيها قوته ، ولدُنت اختراعاته ومقدرته ، فصار يتناول المعنى الحسن فيصيّره مُحَسَّناً بحسن مَسَاقه . »

ولغته مختارة الألفاظ ، متينة التركيب ، على غير صلابة أو خشونة ، وتغلب الصنعة على صياغته ، فيكثر من الجناس والإرصاد والتصريع ، والتشابيه والإشارات والأمثال واستخدام معاني أسماء النجوم ؛ غير أنها لا تنبو عن السمع لأنّه لا يسرف فيها ولا يتبغّض . ولم يكن يجهل ذلك التكلف في طبعه ، فجعل شيطانَ أبي نواس في التوابع والزوابع يقول له عندما سمع شعره : « لله أنت ، وإن كان طبعك مخترَعاً منك ! »

وقلّما تلقى النعومة في نغمة أشعاره لتوفّره على الجزالة ، وشدة الأسر ، واعتيام الألفاظ الفخمة ؛ فالجمال الفنّي عنده مرتفع النبرة في الغالب ، لا ينخفض جرْسُه إلاّ في بعض نفثاته . وقد أشار إلى ذلك بطبعه النُّقّاد عندما أراد أن يصطنع النغم الرقيق على مثال أبيه ، بعدما أورد طائفة من مدائحه ومفاخره ؛ قال ابن بسام : « وأنشد أبو عامر إثر هذا قطعة شعر لأبيه ، هي ثابتة في القسم الرابع من

هذا التصنيف ، قال فيها :

قهقهَ الإبريقُ منّي ضَحِكاً ، ورأى رِعشةَ رجلي فبكى

ثم قال : فإن استهلّ الطاعن صارخاً ، وقال : هكذا الشعر ، وهكذا الطبع ، وهذا الماء رقة وعذوبة ، والهواء لطافة وسهولة ، لا ما كنّا فيه من الشنائع والقعاقع ! قلنا له :

أذَّنَ الديكُ ، فثُبْ ، أو ثَوِّبِ ، وانضَحِ القلبَ بماء العنبِ[1]
وتأمَّلْ آيةً مُعجِزةً ، ما قرأنا مثلَها في الكتبِ
ركعَ الإبريقُ من طاعتِه ، وبكى ، فابتلَّ ثوبُ الأكوُبِ
ولْوَلَ المِزهرُ ينفي كُرَبي ، وتطرَّبتُ ، فأعيا طَرَبي
وربيبٍ قام فينا ساقياً ، كالرَّشا أُرضِعَ بين الربربِ
ظبيةٌ ، دُون الصَّبايا قُصِّصتْ ، فأتتْ غيداءَ في شكلِ صبي
فُتِّحَ الوردُ على صفحتها ، وحَماهُ صُدغها بالعقربِ
فمَشت نحوي ، وقد مُلِّكتُها ، مِشيةَ العصفور نحو الثعلبِ »

فهذه الأبيات جديرة بالشاعر الأندلسي ، غير أنّه لم يُكثر من أمثالها لميله إلى الأسلوب القديم ، حتّى إنّه لم يلتفت إلى فن الموشحات ، مع ملاءمتها لمجالس لهوه وشرابه ، فأعرض عنها ، في حين كان معاصره أبو بكر عبادة بن ماء السماء

---

١ ثب : ارجع . ثوب : أقم الصلاة ، وفيه مراعاة النظير لقوله : أذن الديك . انضح : اغسل مطهراً .

قد اشتهر بها ، وأتقن صنعها ، وقوَّم اعوجاجها ؛ ولكنه جارى العبّاسيين في إحياء الطبيعة ، وتمثيلها امرأة حسناء يتلذذ بأوصافها :

سَهِرَ الحَيا برياضِها ، فأسالها ، والنُّورُ نائم[1]
حتّى اغتدت زَهَرَاتُها كالغيد باللُّجّ العَوائِم
مِن ثيِّباتٍ لم تُبَلْ كشْفَ الخدود ولا المعاصم[2]
وصغارِ أبكارٍ شَكَتْ خجلاً ، فعاذت بالتمائم
وردٌ ، كما خجِلت خدود الـ عينِ من لحظات هائم
وشقيقُ نُعمان شَكَت صفَحاتُه من لطمِ لاطِم
وغصونُ أشجارٍ حكت رَقص المآتِمِ للمآتِم

وتحدّث إليها وسخّرها لمدح أميره ، على طريقة الأندلسيين ، بقوله يمدح المؤتمن :

وغمامٍ باكَرَتْنا عَيْنُه ، تُترِع الأفقَ بدمعٍ صَيّبِ[3]
مثلَ بحرٍ جاءنا من فوقنا ، جِرمُه من لؤلؤٍ لم يُثْقَبِ[4]
فدَنا ، حتّى حسِبنا أنّه يمسَحُ الأرضَ بفضل الهَيْدَبِ[5]

---

١ الحيا : المطر .
٢ لم تبل : لم تبال .
٣ العين : السحاب من ناحية القبلة .
٤ جرمه : جسمه . من لؤلؤ لم يثقب : أراد به البرد .
٥ الهيدب : السحاب المتدلي أو ذيله .

فسألناه ، وقَدْ أعْجَبنا حَشْوُهُ العَينَ بمرأى مُعجِبِ:
أنت ماذا ؟ قال : مُزْنٌ علّمتْ كَفَّهُ النفحةَ كفًّا دَرِبِ[1]
سامَني بالشرق أن أسقيَكُمْ ، رحمةٌ منه ، بأقصى المغربِ[2]
فسألناه : أينْ ذاك لنا ، قال : هل يخفى ضياء الكوكبِ؟
مَلِكٌ ، ناصَبَ مَن خالفَكم ، عامريُّ المُنتمى والمَنْصِبِ[3]
فعلمنا أنها نَفحةُ مَن ورِث الجود أباً بعد أبِ

ووصف خمرة الدير والساقي على أسلوب أبي نواس وأصحابه المُجّان ؛ واصطنع الغزل القصصي الليّن كبشّار ، وجاراه في غزله العبثي على لسان الحمار والبغل . وكان شعره في سجنه وعلّته أفيض أقواله عاطفة ، وأبلغها تأثيراً ، لاختلاف الشواعر النفسية فيه : من ألم وضعف ، ومهانة ، وتوقّع للموت ، وإباء وعزّة ، وموّدة للإخوان . وقد أوردنا أمثلة مختارة من كلامه ، وفي رسالة التوابع والزوابع طائفة حسنة منها ، تشتمل على مختلف فنونه وأغراضه ، يمكن الرجوع إليها في مواطنها من هذا الكتاب .

الكاتب

ذكر ابن خلّكان من آثار ابن شُهيد كتاب كشف الدك وآثار الشك ، ورسالة التوابع والزوابع ، وكتاب حانوت عطار ، ورسائل كثيرة . ولكن لم يبلغ إلينا

---

١ النفحة : العطية .
٢ سامني : كلفني .
٣ ناصب : عادى . المنصب : الحسب والأصل .

منها إلا فصول من التوابع والزوابع أوردها ابن بسّام في ذخيرته ، وجملة رسائل مختلفة الأغراض رُويت في الذخيرة ويتيمة الدهر للثعالبي . قال ابن بسّام :

« وكان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها ، وينبوع آياتها ، ومادة حياتها ، وحقيقة ذاتها ، وابن ساستِها وأُساتها ، ومعنى أسمائها ومسمّياتها ، نادرة الفَلَك ، وأُعجوبة الليل والنهار ؛ إن هزل فسجعُ الحَمام ، أو جَدّ فزئير الأسد الضرغام . نظمٌ كما اتّسق الدُرُّ على النحور ، ونثرٌ كما خُلط المسك بالكافور ، إلى نوادر كأطراف القنا الأملود ، تشقُّ القلوب قبل الجلود ، وجَواب يجري مجرى النَّفَس ، ويسبق رجع الطرف المختلَس . »

وقال فيه ابن حيّان :

« كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفَر الكلام ؛ وإذا تأملته ولَسَنَه ، وكيف يجرُ في البلاغة رسَنَه ، قلتَ : عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في زمانه . والعجب منه أنّه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه ، في بديهته ورويّته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ؛ فإنّه لم يوجد له ، رحمه الله ، فيما بلغني بعد موته ، كتاب يستعين به على صناعته ، ويشحذ من طبعه إلاّ ما لا قَدْرَ له ، فزاد ذلك في عجائبه ، وإعجاز بدائعه . وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارّة أقدرَ منه على سائر ذلك . وشعره حسن عند أهل النقد ، تصرَّفَ فيه تصرُّفَ المطبوعين ، فلم يقصّر عن غايتهم .

» وله رسائل كثيرة في فنون الفُكاهة وأنواع التعريض والأهزال : قصارٌ وطوال ، برّز فيها شأوَه ؛ وأبقاها في الناس خالدة بعده . وكان في سرعة البديهة ، وحضور الجواب وحدّته ، مع رقة حواشي كلامه ، وسهولة ألفاظه ، وبراعة

أوصافه ، ونزاهة شمائله وخلائقه ، آيةٌ من آيات الله خالقه . »

وهذه الرسائل التي ألمع إليها ابن حيّان منها ما خاطب به الأمراء والوزراء ، كرسائله إلى المؤتمَن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، وإلى الموفق مجاهد أمير دانية ، وإلى الوزير ابن عبّاس ؛ ومنها ما خاطب به الأدباء ، كرسائله إلى أبي القاسم الإفليلي ، وابن الحنّاط ، وأبي بكر أشكمياط ؛ ومنها فصول اجتماعية تاريخية ، وأبحاث أدبية ضمّنها نظراته وأحكامه في النقد الأدبي ، سنعود إليها في كلامنا على ابن شُهيد الناقد ؛ ومنها رسالة التوابع والزوابع ، وسنخصُّها بدرس تحليلي على حدة .

ومن حسنات رسائله أنها تضيء جانباً من حياته لم يأبه له المؤرخون ، أو أعاروه من الاهتمام قليلاً ؛ فبدت من خلالها علاقاته السياسيّة والأدبيّة ، وصداقاته وعداواته ، ووفاؤه لأولياء نعمته ، ومودّته للأصحاب والإخوان ، وحدّته على الخصوم والحسّاد ، وسلاطة لسانه في السخر والتعريض وصريح الهجاء . فرسالته الطويلة إلى المؤتمن تطلعنا على ما كان له ولأبيه من الحظوة في الدولة العامرية ، وعلى بعض شؤونه في صباه . ورسالته إلى الموفق ترجمة لما وقع بينه وبين الفرَضي من العداء والشحناء . ورسالته إلى أبي القاسم الإفليلي فيها عتبه عليه لازوراره عنه ، وجريه في حلبة الفرَضي وابن فتح . ومن فصوله وأحاديثه نستخرج جملة من أخباره مع الوزراء والأدباء وآرائه في أبناء زمانه ممّن انتحلوا السياسة ، أو طلبوا العلم ، أو احترفوا التعليم . وله في صفة معلمي قرطبة ، وتصوير أخلاقهم ، وشرح أحوالهم في مجالس الأدب ، ما يذكرنا الجاحظ وسخره اللاذع بهذه الجماعة . فمن ذلك قوله :

« وقومٌ من المعلمين بقرطبتنا ممّن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يَحنُون على أكبادٍ غليظة ، وقلوبٍ كقلوب البُعران ،

ويرجعون إلى فِطَنٍ حَمِئةٍ ، وأذهانٍ صَدِئة ، لا مَنفَذَ لها في شُعاع الرِّقّة ، ولا مَدَبَّ لها في أنوار البيان . سقطت إليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الإيقاع ، والزمر على الألحان ؛ فهم يصرّفون غرائبها ، فيما يجري عندهم ، تصريفَ من لم يُرزَق آلة الفَهم . ومن لم تكن له آلة الصناعة ، ممّا هي مخصوصة بها ، ولا تقوم[1] تلك الصناعة إلا بتلك الآلة ، فهو كالحمار لا يمكنه أن يتعلّم صناعة ضرب العود والطنبور ، لتوتّد رُسْغِه[2] واستدارة حافره ؛ ولا له بنانٌ يجُسّ به على دَسْتَانٍ[3] . ولو جاز أن يكون حمار يغني :

ما بالُ أنجُمِ هذا الليل حائرةً ، أضلّتِ القصدَ ، أم ليست على فَلَكِ ؟

وشِبهَه ، من أجل أن له حنكاً ولساناً ، وقصبة رئةٍ ، لما جاز أن يوقّع بالمضراب على الأوتار ، ويتمّم بجسّ الأنامل ، ويرخي الوتر في مجرى السَّبّابة والبِنصر ، فيبلبل بنشيده ، ويولْوِل في ضربه على بسيطه .

فهذه حال العصابة من المعلمين : يدركون بالطبيعة ، ويقصّرون بالآلة . وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة للروحانية ، والخادمة لآلات الفهم ، الباعثة لرقيق الدم في الشريانات إلى القلب ، وزيادةِ غِلَظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعي . وممّا يعين على ذلك

---

١ ولا تقوم : في الأصل : لا تقوم .
٢ الرسغ : الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل في الدابة .
٣ الدستان من العود : مكان إصلاح الأوتار وشدها ، جمعه دساتين ، في الأصل دستبان وهو تصحيف .

بالحَدْس وطريق الفِراسة فسادُ الآلة الظاهرة ، كفرطحة الرأس وتسفيطه[1] ، ونتوء القَمَحْدُوَة[2] ، والتواء الشِّدق ، وخزَر العين[3] ، وغِلَظ الأنف ، وانزواء الأرنبة[4] ، فنستعيذ بالله ألاّ يُشَوِّه خلقة قلوبنا ، ولا يُجسي[5] أجرام أكبادنا ، ويضمّ أوتارنا وأعصابنا ، ولا يُعظِّمَ أنوفنا ، ولا يجعلَنا مُثْلةً للعالمين ! »

وقال فيهم أيضاً :

« وممّا عُلم من خُلق هذه العصابة ، إذا لمحتنا أبصارهم قابلونا بالمَلَق ؛ وهم منطوون على حسد وحنق . فإذا جمعتنا المحافل ، وضمتنا المجالس ؛ تراهم إلينا مُبصبصين[6] ، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني زائغين . وإنّما يتبيّن تقصير المقصّر ، وفضل السابق المبرّز ؛ إذا اصطكّت الرُّكب ، وازدحمت الحلَق ، واستُعجِل المقال ، ولم توجد فُسْحة لفكرة ، ولا أمكنت نظرة لرويّة ؛ أو في مجالس الملوك عند أُنسها وراحتها ، فإنّه يقع فيها ويجري لديها ما لا ينفع له الاستعداد ، ولا ينفذُ فيه غير الطبع والغريزة المتدفقة . فترى الجواد السابق إذ ذاك مُتشوّفاً[7] بأذنه ، باحثاً لكديد[8] الإحسان بيده ، طامح النظر ، صَهصَلِق[9] الصليل ؛ وأهلُ الصّنعة خُرْس ، لا يُسمع لهم جَرْس ، ولا شيء عندهم غير

---

١ فرطحة الرأس : عرضه . تسفيطه : محاكاته للسفط ، وهو وعاء كالقفة .
٢ القمحدوة : مؤخر القذال .
٣ خزر العين : انكسار بصرها وضيقها وصغرها ، أو نظرها بأحد الشقين ، أو حولها .
٤ الأرنبة : طرف الأنف ، وانزواؤها : تجمعها وتقبضها .
٥ يجسي الشيء : يجعله صلباً .
٦ مبصبصين : فاتحين أعينهم ، من بصبص الجرو فتح عينيه ، أو بمعنى متملقين كتبصبص .
٧ متشوفاً : أي متطلعاً إلى الخبر .
٨ الكديد : الأرض الغليظة .
٩ الصهصلق : الشديد من الأصوات .

حَسو الكاس ، وشمّ الآس ، وتنفّس الصُّعَداء ، قد اصفرّت ألوانهم ، وقلّصت شفاههم ، كأنّهم من رجال عُذْرة . »

وكذلك بحثه في الكتابة وشروطها ، وصفات أصحابها ، يقرّب الجوار بينه وبين عبد الحميد . وإذا رأيناه يُخرج الجاحظ من طبقة الكتّاب ، فإنّما أراد بهم كتّاب الملوك ، ولم يُرد الكتابة بالمعنى المطلق ، كما توهّم بعض النقّاد من أهل زماننا . قال :

« ذُكر يوماً عند أبي القاسم سهلُ بن هارون والجاحظ ، فضَرب فيهما مثل العامّة : « بينهما ما بين الملائكة وصبيان الحرَس . » هذا من الإنحاء العظيم على سهل ، والأولى أن يسمّيا مُحسنَين ، إلاّ أن سهلاً كاتبُ سلاطين ، والجاحظ مؤلفُ دواوين . وقد يؤدّي النظر إلى أنهما في طريقتين مختلفتين ، وكلاهما محسن في بابه ؛ إلاّ أنّه لم يُرَ أغبنُ من الجاحظ لنفسه ؛ إن كان واحد البلاغة في عصره ، فما باله لم يلتمس بها شرف المنزلة بشرف الصنعة . وقد رأى ابنَ الزيّات وإبراهيمَ بن عبّاس بلغا بها ما بلغا ، وهو يلتمس فوائدهما والجاه بهما ؟ فلا يخلو في هذا إمّا أن يكون مقصّراً عن الكتابة وجمعِ أدواتها ، أو يكون ساقط الهمّة ، أو يكون إفراطُ جحوظ عينيه قعد بهِ عنها ، كما قصّر بي أنا فيها ثِقَل سمعي ، وبأبي القاسم ورَمُ أنفه . إذ لا بدّ للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليها عينه ، وأُذُنٍ ذكيّة تسمع منه حِسّه ، وأنفٍ نقيٍّ لا تُذَمّ أنفاسه عند مقاربته له . ولذلك استحسنوا من الكاتب أن يكون طيّب الرائحة ، سليم آلات الحواس ، نقيّ الثوب ، ولا يكونَ وَسِخ الضرس ، منقلب الشّفة ، مكحّل الأظفور ، وَضِر الطوق[1] . وربّما أنكر مُنكِر قولنا في شرط جمع أدوات

---

١ الوضر : الوسخ .

الكتابة، فقال : « وأيّ أداة نقصت الجاحظ ؟ » فنقول : أوّلُ أدوات الكاتب العقلُ ، ولا يكون كاتب غير عاقل . وقد نجد عالماً غير عاقل ، وجَدَليّاً غير حصيف ، وفقيهاً غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل إلى سهل أكثر من نسبته إلى الجاحظ . لو شهد الجاحظ سهلاً يخادع للرشيد مُلكاً ، ويدبّر له حرباً ، ويعاني له إطفاء جمرة فتنةٍ ، مستضلعاً في ذلك كله بعقله ، وجوّدة علمه ، لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال ، في صفة البغال ، وغير الكلام في الجُرذان ، وبنات وَردان[1] ، ولعلم أن بين العالم والكاتب فرقاً . »

ويغلب القَصص على إنشاء أبي عامر ، فتجده في مختلف رسائله وفصوله محدثاً يسوق الخبر والنادرة ، ويحسن السرد والأداء ، ويعنى بالتحليلات النفسية ، وتصوير الأخلاق والأشكال ، كما في كلامه على الفرَضي والإفليلي ، وسهل ابن هارون والجاحظ ، وعلى المعلمين ، وأوصافه دقيقة بارعة ، سواء تناول بها المعاني الذهنيّة ، أو الأجسام الحيّة والجامدة ، كوصفه للنفس الروحانية في ذمّه المعلّمين ، مستنداً إلى علم الفراسة في ذكر أشكال الذين فسدت روحانيتهم ؛ وكوصفه لدار الفرَضي ، ورهطه ، ومواعينه وعقاقيره ؛ أو وصفه للحلواء وصاحبها المنهوم ؛ وهذه الرسالة مثبتة في التوابع والزوابع ، وهي تشبه المقامة في مساقها .

وأظهرُ خصائصه في الوصف أن يتتبع الموصوف بتصوير ميزاته في الأعضاء والألوان ، والصوت والحركة والطباع ، حتى يجعله مُحَسّاً بارز الشخصية ، لا شبحاً غامضاً ، كما وصف الماء متأثراً ببديع الزمان ، والبرد والنار والحطب والحلواء . ويبدو في أوصافه الوضيع رفيعاً ، والقبيح جميلاً ، وإنّما هما رفعة

---

١ بنات وردان ، واحدتها بنت وردان : دويبة نحو الخنفساء ذات ألوان مختلفة أكثر ما تكون في الحمامات والكنف .

الفن وجماله أضفاهما على موصوفاته الحقيرة الدميمة ، فاكتسبت بهما رُواء ، وعلت قدراً ومقاماً ، كوصفه الثعلب والبرغوث ، وهما في التوابع والزوابع ، أو وصفه للبعوضة إذ يقول :

« البعوضة مليكةٌ ، لا جيشَ لها سواها ، تحقرها عين من يراها ، تمشي إلى الملك بنَدبها ، وتضرب في بُحبوحة داره بطبلها . تؤذيه بإقبالها ، وتعرّفه بإراقة دمه ما لها . فتُعْجِز كفّه ، وتَرغَم أنفه ، وتضرّج خدّه ، وتَفري لحمه وجلده . زمجرتُها تسليمها ، ورمحها خرطومها ، تذلل صعبك إن كنت ذا قوة وعزم ، وتسفِك دمك ، وإن كنت ذا حِلْف وعسكر ضخم . تنقُض العزائم وهي منقوضة ، وتُعجز القويّ وهي بعوضة ، ليرينا الله عجائب قدرته ، وضعفنا عن أضعف خليقته . »

وإنشاؤه رائق الديباجة واضحها ، لا تكدّر الصنعة صفاءه لقوة طبعه ، وتجافيه عن الإفراط فيها ، مع أنّه يلتزم السجع أحياناً ، ويؤثر المجاز على الحقيقة ، فتكثُر عنده الاستعارات والتشابيه والكنايات . وجملته رشيقة العبارة ، محكمة التركيب ، فيها جزالة وإيجاز ، على غير خشونة وإخلال ؛ يُمِدُّها بآيات القرآن ، وأقوال العرب وأمثالهم ؛ ويستعين عليها بمأثورات أخبارهم وأحاديثهم ، فتستكين إليه الرواسم الجاهزة ، والعناصر المستعارة ، ولذلك قال الكاتب أبو بكر أشكمياط حين وقع على فصول له : « فِقَرٌ حِسان إلاّ أنّه عثر عليها . »

بَيد أنّه يحسن صهرها وتنزيلها ، فلا تُلفى غريبةً مُهَجَّنة ، ولا نافرة مُقلقَلة ، ولا مُجَرَّرة مُتعَبة ، فهو من النفَر الذين إذا كتبوا ارتاحت إليهم ملكة البلاغة ، وتشققت لهم أكمام البيان .

مرّ بنا في كلام ابن حيّان أن أبا عامر ما أدرك غير الوسط في ثقافته الأدبية ، لقلة صبره على طلب العلم ، وعدم عنايته باقتناء الكتب ، فهو من أولئك الفتيان الذين وصفهم بقوله : « ولكن البطالة على الفتيان غالبة ، والسآمة عليهم مستولية . » ويخبرنا في صدر التوابع والزوابع أنّه كان في أيّام كتّاب الهجاء ، يحنّ إلى الأدباء ، فاتّبع الدواوين ، وجلس إلى الأساتيذ ، فحصّل العلم بقليل من النظر ، ويسير من المطالعة . على أنّه لم يذكر أحداً من هؤلاء الأساتذة ، ولا اعتدّ بشيخ مشهور أخذ عنه ؛ فاستهدف بذلك إلى تعيير الخصوم ، والشك في علمه ومعلميه . وكأنّه يردّد كلامهم بلسان الجني صاحب الإفليلي حين يقول فيه : « فتى لم أعرف على مَن قرأ . » ونعلم مصير الكتب عنده ، بعد مطالعته لها ، من ذاك الحوار الذي جرى بينه وبين الجني ، قال: «فطارِحْني كتاب الخليل . قلت : هو عندي في زِنبيل . قال : فناظِرني على كتاب سيبويه . قلت : خريت الهرة عليه ، وعلى شرح ابن دَرَسْتَوَيه . »

وبيّنٌ أن أبا عامر ما أراد سوى المفاخرة بقراءة هذه الكتب ، واستغنائه عنها ، وإن يكن في كلامه ما يؤيد قول ابن حيّان من أنّه قليل الاعتناء باقتنائها ، قليل الرغبة في الطلب . فقد كان صاحبنا يعتمد على غرب ذاكرته ، وتوقُّد ذهنه ، وذكاء قلبه ؛ فاكتفى بيسير المطالعة ، وقليل النظر ؛ واقتصر على صدره خزانة لكتبه ، فتأتّى له قسط صالح من الأدب ، إن فاته الرسوخ فيه ، على حد قول ابن حيّان ، لم يفته الاطّلاع على الشعر القديم والحديث وعلى كتب التاريخ ، ولا قصّرت به المشاركة في علوم اللغة وآداب القرآن والحديث ، ولا ندّ عنه حسن المذاق ورهَف الحسّ ، فصحّ له أن يتصدّر للنقد ، وقد تهيّأت

له عدته المعروفة ، مدافعاً عن نفسه ، مقاوماً خصومه ونُقَّاده ، مُدلياً بآرائه في الشعر والنثر ، في الألفاظ والمعاني ، في الفن والجمال . فعدا على المعلمين والنُّحاة ، وهم في نظره حسَّاد الأدباء ، لا يحسنون الكتابة والشعر ، لضعف روحانيَّتهم ، وسوء فهمهم ، وغلاظة أكبادهم : « سقطت إليهم كتب في البديع والنقد ، فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الإيقاع ، والزمر على الألحان ، فهم يصرِّفون غرائبها ، فيما يجري عندهم ، تصريف من لم يُرزَق آلة الفهم . » ومن دلائل تقصيرهم : « أنهم لا يُقدمون أن يجعلوا ما يحملون من المعرفة تصنيفاً ، ولا تغزر مادتهم أن ينشئوها تأليفاً . » فهم ينفثونها بين تلاميذهم : « ولا تُروى لهم نادرة ، ولا تؤثَر عنهم في البلاد شاردة . »

ومن سخره بالنُّحاة أنه جعل في التوابع والزوابع تابعةَ أحد الشيوخ إوزَّة ، والإوزّ يُضرب به المثل في الحمق والسخافة ، وجعلها تجادله فتقول : « ما الذي تحسن ؟ قلت : ارتجال شعرٍ ، واقتضاب خطبة . قالت : ليس عن هذا أسألك . قلت : ولا بغير هذا أجاوبك . قالت : حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال ، وأنا إنّما أردت إحسانَ النحو والغريب اللذين هما أصل الكلام ، ومادة البيان . » ثم يسألها : « فهل تعرفين في الخلائق أحمق من إوزّة ؟ » قالت : « لا . » قال : « فتطلَّبي عقل التجربة ، إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة ؛ فإذا أحرزت منه نصيباً ، وبؤت منه بحظ ، فحينئذ ناظري في الأدب . »

ولم تكن قسوته على النُّحاة والمعلمين دون تعنُّته سائرَ الأدباء في عصره ، فإنّه سخط عليهم لما لقي من أذى خصومتهم وحسدهم ، وكان كغيره من الكتّاب والشعراء الذين يصعب عليهم أن ينسبوا الإحسان إلى أقرانهم وأترابهم ، ولا سيّما الجيل الناشىء على أثرهم ؛ يملكهم الغرور ، فيتوهّمون أنهم انفردوا بالإجادة والنبوغ ، ولم يبقَ بعدهم مجال لمبدع أو مجيد . وفي كتاب له إلى المؤتمن يصوّر

هذه الجماعة التي لم يكن بريئاً منها ، أجمل تصوير ، معتداً بأدبه وإبداعه ، متذمراً على دهره الذي أوجده بين قوم ضاع أدبه فيهم فلم يفهموه : «لا كقوم عندنا حظهم من الفهم الحفظُ ، ومن العلم الذكرُ ، وهذا حظّ القُصّاص ، وأعلى منازل النُّوّاح . فترى المُمخرِقَ منهم ، إذا قُرِىء عليه الشعر ، يزوي أنفه ، ويكسر طرفه ؛ وإذا عُرِضت عليه الخطبة ، يُميل شِقّه ، ويلوي شِدقه . فإن تناولهما لم يُبقِ ملحة إلا حشدها ، ولا أبقى عفصة فجّة إلا جلبها . وأصل قلّة هذا الشان ، وعدمِ البيان ، فسادُ الأزمنة ، ونبوّ الأمكنة ، وأنّ الفتنة نسخٌ للأشياء ، من العلوم والأهواء ؛ ترى الفَهِم فيها بائر السلعة ، خاسر الصفقة ، يُلمَح بأعين الشَّنَآن ، ويُستثقل بكل مكان . هذا دأبنا وحربنا . إنّا طلبنا البيان ، فأدركناه بكل لسان ، والتمسنا الإبداع ، فأثبتنا كل معجِب ، وأتينا على كل مطرب ، فما سقطنا على سُوقة يهَشّ إلينا ، ولا دَفَعنا إلى ملك يصبو بنا ، وليت ، إذ لم يكن غُنْم ، ألاّ يكون غُرم ! وودِدنا أنّا بَرازخ[1] لا حربٌ ولا سلم ، ولا يقَظة ولا حُلم ؛ كفى بذلك إنحاء على الزمن ! »

ومن ذلك ما جاء في رسالة التوابع والزوابع ، إذ يقول له صاحب الجاحظ : « إنّك لخطيب ، وحائك للكلام مجيد ، لولا أنّك مغرى بالسجع ، فكلامك نظم لا نثر . » فيجيبه : « ليس هذا ، أعزّك الله ، مني جهلاً بأمر السجع ، وما في المماثلة والمقابلة من فضل ، ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام ، ودُهيت بغباوة أهل الزمان ، وبالحَرَا أن أُحرّكهم بالازدواج . » فيقول له الجني : « فكيف كلامهم بينهم ؟ » فيقول : « ليس لسيبويه فيه عمل ، ولا للفراهيدي إليه طريق ، ولا للبيان عليه سِمة ، إنما هي لُكنة أعجميّة ، يؤدّون بها المعاني

---

[1] البرازخ ، جمع برزخ : وهو الحاجز بين الشيئين .

تأدية المَجوس والنَّبط . » فيصيح تابع الجاحظ : « إنّا لله ! ذهبت العرب وكلامها ! ارمهم ، يا هذا ، بسجع الكُهّان ، فعسى أن ينفعك عندهم ، ويُطير لك ذكراً فيهم ! »

وخصّ أبا القاسم الإفليلي بنقد موجع تعمّد فيه إظهار أوصافه على ألسنة الصبيان ليخرجه من حلقة الأدباء :

« وهو أبخل أهل الأرض لا محالة . ولم يقصّر بنا عنده إلا توقيرنا لثّغامته[1] ، وهو يرى أن بعض صبياننا قد أقلقوه حين قالوا : « ليست مِشيته مِشيةَ أديب ، ولا وجهه وجهَ أريب ، ولا جِلسته جِلسةَ عالم ، ولا أنفه أنفَ كاتب ، ولا نغمته نغمة شاعر . »

وفي استناده إلى الأوصاف يتكلّم على تأثير النفس في الإنشاء ؛ فمن كانت نفسه مستولية على جسمه ، كان مطبوعاً روحانياً يُطلع صورَ المعاني في أجمل هيئاتها ؛ ومن كان جسمه مستَوْلياً على نفسه من أصل تركيبه ، كان ما يُطلع من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال .

ولتركيب الأعضاء ، كما يقتضي علم الفِراسة ، تأثير في صلاح الآلة الروحانية وفسادها ؛ ففساد الآلات الظاهرة في الجسم يعين على فساد الآلة القابلة الروحانيّة ، والخادِمة لآلات الفهم : منها فَرطحة الرأس وتسفيطه ، ونتوء القَمَحدُوة ، والتواء الشّدق ، وخَزَر العين ، وغِلَظ الأنف ، وانزواء الأرنبة .

وغير خفيٍّ ما في هذه الأحكام من غموض ومجازفة لا يصحُّ الركون إليهما ، إلاّ أنها خطوة محمودة خطاها ابن شُهيد في النقد الأدبي ، مؤلفاً في طريقه بين

---

1 الثغامة : نبتة بيضاء يكنى بها عن الشيب .

إنشاء الكاتب وحالات نفسه ، وصور أعضائه . « فإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو ، بل بالطبع ، مع وزنه من هذين ، ومقدار طبع الإنسان إنّما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه . » فمن كان طبعه روحانياً استولت نفسه على بدنه ، وجاء : « بصور رائقة من الكلام تملأ القلوب ، وتشغف النفوس ، فإذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده ، ولجمال تركيبها أُسّاً لم تعرفه ، وهذا هو الغريب أن يتركب الحُسن من غير حُسن كقول امرىء القيس :

ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالي

وقوله :

تنوَّرتُها من أذرِعاتٍ ، وأهلُها يثرِبَ ، أدنى دارِها نظرٌ عالِ

فإنّ هذه الديباجة إذا تَطلَّبتَ لها أصلاً من غريب معنى لم تجده . »

فأبو عامر يلمس هنا نظرية الشعر الصافي ، بما فيه من توقيع وتركيب وجمال غير محدود ، ويعزوه إلى صفاء النفس واستيلائها على الجثمان ، مع الاحتفاظ بميزانيّ معرفة الغريب ، واستيفاء مسائل النحو . على أن هذا لا يعني أنّه يريد تطهير الشعر الصافي من المعنى والعاطفة والصورة كالأب بريمون وأصحابه دعاة هذا المذهب الحديث ؛ فقد كان ، على إجلاله لروعة الديباجة ، يجدها بعض الأحيان خدّاعة للناقد ، فيوصيه أن يحترس منها في حكمه على الشاعر ، ولا ينساق بظواهرها ، فليس الشعر باللفظ وحده ، وإنّما يستحق الصناعة من يتقحّم بحور البيان ، ويتعمد كرائم المعاني والكلام ، وينطق بالفصل ، ويركب متون الجِدّ ، ويطلب الأشياء النادرة والسائرة ، وينظِم من الحكمة ما يبقى بعد موته ، متصرّفاً

تصرُّفَ الملح في الطعام ، متلوّناً في الأغراض والصور ، تلوُّنَ أبي براقش[1] .

ويرى أن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلمات ؛ فإذا جاور النسيبُ النسيبَ ، ومازج القريبُ القريبَ ، طابت الألفة ، وحسُنت الصُّحبة . وإذا رُكّبت صور الكلام ، حسُنت المناظر ، وطابت المخابر . وللعذوبة إذا طُلبت ، والفصاحة إذا التُمست ، قوانين من الكلام ، من طلب بها أدرك ، ومن نكّب عنها قصّر . وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ، فكذلك يجب أن تختار مليح النحو ، وفصيح الغريب ، وتهرب من قبيحه .

وأهل صناعة الكلام ثلاث طبقات متباينون في المنزلة ، متفاضلون في شرف المرتبة ، على مقدار إحسانهم وتصرفهم . فمنهم الذي ينظم الأوصاف ويخترع المعاني ، ويحرز جيّد التأليف ، إلا أنّه يجري في الأبيات القليلة والمآخذ القريبة ، فإذا كثُرت عليه وازدحمت ، وقف وانفلّ ، وتلاشى واضمحلّ . ومنهم الكارع في بحر الغزارة ، يمرّ مرّ السيل في اندفاعه ، لا يشكو الفشل ، ولا يكلّ على طول العمل ، فذلك الألسَنُ يوم حرب الكلام ، لا تخطىء ضربته ، ولا تصاب غِرّته . ومنهم من يتجافى عن الكلام ، ويروغ عن المقال ؛ فإذا مُني به أخذ بأطراف المحاسن ، وشارك في أنحاء من الصنعة ، وجُلُّ ما عنده تلفيقٌ وحيلة ، وبذلك يصاحب الأيّام ، ويجاري أبناء الزمان . ومن خرج عن هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ، ولا يدخل في أهل صناعة الكلام .

ويبحث في الأساليب واختلافها باختلاف العصور والأمم فقال : « وكما أن لكل مقام مقالاً ، فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة

---

[1] أبو براقش : طائر صغير بري كالقنفذ ، أعلى ريشه أغبر ، وأوسطه أحمر ، وأسفله أسود ، فإذا انتفش تغير لونه ألواناً شتّى .

من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة ، وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ، ولا تَهَشُّ لسواه . وكما أنَّ للدنيا دولاً ، فكذلك للكلام نُقَلٌ وتغايُرٌ في العادة . » ولذلك أنكر على معاصريه تصديرهم قصائد المدح بذكر عرائس الشعر جرياً على الأسلوب القديم ، وأوصى أهل الصناعة ، إذا اعتمدوا وصف حالة ، أن يستوفوا جميعها ، ولا يخرجوا عنها ، فذلك أبهى لكلامهم ، وأدلّ على أن الكلام لهم ومن تأليفهم . وعاب على عبد الحميد تأثُّره بلغة الأعراب ، وروح البداوة ، فخاطب صاحبه الجني في رسالة التوابع والزوابع بقوله : « إني لأرى من دم اليربوع بكفّيك ، وألمحُ كُشى الضبّ على ماضِغَيك ! »

ولم يغفل عن السرقات الأدبية ، ومن حقّه أن لا ينساها ، وهو من المتهمين بها ، فأجازها للشعراء ، على شرطٍ وضعه ، وقانونٍ رسمه ، قال في رسالة الجن : « إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك ، فأحسِنْ تركيبه ، وأرِقَّ حاشيته ، فاضرِبْ عنه جملة ، وإن لم يكن بدّ ففي غير العَروض التي تقدّم إليها ذلك المحسن ، لتنشط طبيعتك ، وتقوى مُنّتُك . » وأدرك على عمر بن أبي ربيعة ترسّمه بيت امرىء القيس :

سموتُ إليها بعدما نام أهلها ، سموَّ حَباب الماء حالاً على حالِ

فقال : « ألا ترى عمر بن أبي ربيعة ، وهو من أطبع الناس ، حين رام الدنو منه والإلمام به ، كيف افتضح في قوله :

ونفّضتُ عنّي النومَ ، أقبلتُ مِشْيةَ الـ حُباب ، وركني ، خَشيةَ القوم ، أزْوَرُ

ولو ركب غير عَروضه لخلص . »

ويستشهد على صحة زعمه بقول إسماعيل بن يسار النَّسائي :

أقبلتُ، والوَطء خفيف، كما ينساب من مَكمنِه الأرقَمُ

وأنّه عندما حاول النظر إليه ، خالفه في العَروض ، فابتعد عنه ، ولم يفتضح مثل ابن أبي ربيعة ، قال :

أدِبُّ إليه دبيب الكرى ، وأسمو إليه سموَّ النَّفَس

ولسنا على رأي أبي عامر في هذه القضية ، فالسرقات الشعريّة لا يخفيها اختلاف العَروض ، ولا يشفع شيء لمستحلّها ، إلاّ إذا ولّد منها صوراً أو معاني جديدة يحق له أن يدّعيها كما قال أبو نواس :

دَعْ عنك لومي ، فإنّ اللوم إغراءُ، وداوني بالّتي كانَتْ هي الداءُ

وهو مأخوذ من قول الأعشى :

وكأسٍ شربتُ على لَذّةٍ ، وأخرى تداويت مِنْها بها

فزاد عليه المثل المولّد في صدر البيت ، وجعل مداواة الداء بالداء مطلقة لا مقيَّدة ؛ فنُسب المعنى إليه ، واشتهر بيته على أفواه المنشدين ، وخمل بيت أبي بصير . ونرى أن عمر أقرب في صورته الشعرية إلى معاصره إسماعيل بن يسار منه إلى امرىء القيس ، وإن شابه الشاعر الكندي بالعَروض ، ولطف الوصول إلى الحاجة ، كما أن أبا عامر يجاور في صورته الشاعر الجاهلي أكثر من مجاورته إسماعيل بن يسار .

ولا يخلو نقده من سخر لطيف ، أو تهكّم لاذع ، شأنه في بيت أبي نواس :

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواكِ ، لعلّ الفضل يجمع بيننا

قال : « فهذا من الكلام الغث ، واللفظ الرث ، الذي لو رامه حمار الكُسَاح[1] لأدركه . »

ونظم في رسالة التوابع والزوابع أبياتاً في الغزل على لسان بغل ، وأُخرى مثلها على لسان حمار ؛ فلمّا عُرضت عليه للمفاضلة بين الشاعرين ، وسمع قول الحمار :

وما نلتُ منها نائلاً ، غير أنني ، إذا هي راثت ، رُثتُ حيث تروثُ

قال : « والله إن للروث رائحة كريهة ، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعر . » وأنف الناقة هو تابع أبي القاسم الإفليلي .

فأبو عامر من خيرة النُّقّاد في العصر القديم ، وله نظرات جريئة يُحمد عليها ، وإلّمْ تسلم من الغمز والتجريح ، وفيها ما يوافق المذاهب الحديثة في زماننا كبحثه في تأثير الألفاظ ، والجمال الذي لا يوصف ؛ وسيمرّ بنا شيء غير قليل من نقده وسخره في رسالة التوابع والزوابع .

---

١ الكساح : داء للإبل ، أو هو الكساحة أي تعطل القوى في اليدين والرجلين ، وأكثر ما يستعمل في الرجلين .

رسالة التوابع والزوابع

نسختها

لم يُعثر إلى الآن على مخطوطة لرسالة التوابع والزوابع ، وإنّما بلغ إلينا منها ما أثبته أبو الحسن عليّ بن بسّام الشنتريني الأندلسي في القسم الأول من كتابه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، فرأينا أن نقسمه ، بحسب أغراضه ، إلى مدخل وأربعة فصول ، وجعلنا عنوان الفصل الأول : توابع الشعراء ، والثاني : توابع الكتّاب ، والثالث : نُقّاد الجن ، والرابع : حيوان الجن . وهي عناوين تقبل الزيادة بعد العثور على نسخة كاملة لهذه الرسالة الحسناء .

والقسم الأول من كتاب الذخيرة طُبع في مجلدين بالقاهرة ، أولهما سنة ١٩٣٩ ، وتولّت نشره كليّة الآداب في جامعة فؤاد الأوّل ، وفيه فصول التوابع والزوابع ، فاعتمدنا عليه في إخراجها كتاباً على حدة .

ويخبرنا الدكتور طه حسين في مقدمة الكتاب أن الجامعة كلفت المستشرق لاوي بروفنسال مع طائفة من شباب قسم اللغة العربية في كليّة الآداب أن يهيئوا نصّ كتاب الذخيرة للطبع ، معارضين ما اجتمع لهم من النسخ ، مصحّحين ما لا بدّ من تصحيحه . ثم ألفت لجنة من أساتذة الكليّة : طه حسين ، أحمد أمين ، مصطفى عبد الرّازق ، عبد الحميد العبادي ، عبد الوهّاب عزام ، لاوي بروفنسال ، للنظر في ما أعدّت اللجنة الأولى من النصّ تقرأه منفردة ومجتمعة ،

حتى إذا أقرنه ، أذنت بطبعه ، وعلى هذا النحو أُخرج القسم الأول من الذخيرة ، مصحّحاً ومحرّكاً ومطبوعاً طبعاً جميلاً .

على أنّنا ، عندما حملنا النفس على نشر رسالة التوابع والزوابع ، وجدنا أن اللجنة لم تُعنَ بشرح الألفاظ الغريبة والاصطلاحات الأندلسيّة ، بل أرجأت ذلك إلى أن تنتهي من نشر بقيّة الأقسام . فتولّينا شرح الغريب من اللفظ ، وفتح المغلق من المعنى ، وتعريف أسماء الأعلام ، وإيضاح التلميحات التاريخيّة ، تسهيلاً على عامة القراء ، وتخفيفاً عن خاصتهم . ووقعنا على خطإ غير قليل في الشكل ، يحسن بنا أن نردّ معظمه على الطابع ، فأصلحناه وقوّمنا مُنآده ، دفعاً للالتباس والتشويه .

ولم يقف عملنا عند هذا الحد في إخراج هذه الرسالة ، فإن الجهد الذي بذلته اللجنة في معارضة نسخ الذخيرة ، وتصحيح النصّ ، لم يبلغ إلى ما أرادته من رد الكتاب إلى الصواب ، كما يقول الدكتور طه حسين في المقدمة . وهذا ما تبيّنّاه في أثناء دراستنا لآثار ابن شُهيد ، إذ عرضت لنا ألفاظ مغلوط فيها أو محرّفة ، عجبنا كيف جاوزتها اللجنة دون أن تدقق في معانيها ، أو تراجعها في مظانها ، ورأينا أن نستدرك ما فاتها . فمما صحّحناه بتتبع المعنى ، وتقريب صور الألفاظ بعضها إلى بعض ، قول أبي عامر في وصف الصيد :

نُمَسّح بالحَودان منه أكُفّنا ، إذا ما اقتنصنا منه غيرَ قليلِ

والحَودان لا معنى له ، وإنّما أراد الحَوذان ، وهو نبت نَورُه أصفر ، وقد وَصف ، قبل هذا البيت ، أبكار النّور ، وشبّهها برداء عروس ، وهنا يذكر تمسيح الأيدي بها من لحم الطرائد . ومثل ذلك قوله : « فضرب زهير الأدهم بالسوط ، فسار بنا في قَنّته . » ولا وجه للقنت يُردّ إليه الكلام ، فضلاً

عن إشكال استعماله بمعنى القنوت ، وصوابه القَنَن ، أي سَنَن الطريق ونهجه .

وممّا صحّحناه بالرجوع إلى كتب الأدب ودواوين الشعراء ، قول طرفة :

لسُعدى بحِزّان الشّديف طلولُ

والشديف لا ذكر له بين أسماء المواضع ، وهو في ديوان طرفة الشُّرَيف بالراء المهملة والتصغير ؛ ذكر صاحب القاموس أنّه أعلى جبل ببلاد العرب ، وأنّه قد صعده ؛ وذكره ياقوت في معجم البلدان ، وقال إنّه يُطلق أيضاً على ماء لبني نُمير بنجد أو وادٍ بنجد ، وعلى حصن من حصون زبيد باليمن .

ومنه قول أبي نواس :

لمن دِمَنٌ تزداد طيبَ نسيمٍ ، على طيبِ ما أقْوَتْ ، وحسنَ رسومِ

ووجه الكلام : « على طول ما أقْوت » وهكذا رواية الديوان .

وقال أبو عامر بن شُهيد :

أصَفِيحٌ شِيمَ ، أم برقٌ بدا ، أم سنا المحبوب أورَى أزْنُدَا ؟

وصوابه ، كما في مطمح الأنفس ، أصَباحٌ شِيمَ .

وكذلك قوله في القصيدة نفسها :

قلتُ : هَبْ لي ، يا حبيبي ، قبلةً ، تَشفِ من غَمّك تبريحَ الصّدى

ولا معنى لغمّك هنا ، وإنّما هي عمّك ، كما في مطمح الأنفس .

وجاء في رسالة الحلواء : « فأمرت الحلواني بابتياع أرطال منها . » ورواية

يتيمة الدهر : « فأمرت الغلام . » وهي الصواب .

ومرت بنا ألفاظ يستقيم بها المعنى على اختلاف روايتها ، مثل قوله : « أعذبُ من ألْسِنة الأحبّة . » فآثرنا رواية يتيمة الدهر ، وهي : « أعذب من ريق الأحبّة . » وألفاظ أخذناها على وجه التقريب ، ولم ينشرح لها صدرنا ، كما في قوله : « وتحركتُ لهم حركة مشولم . » وهو ، كما يظهر ، من اصطلاح أهل المغرب ، وليس له ذكر في المعجمات إلاّ معجم دوزي ، فإنّه أثبت لفظة مَشُولين ، وقال إن معناها فتيان ، وإن واحدها مَشْوَلُ ، كمَقْعد ، على خلاف القياس . فلعلّ في مشولم تحريفاً ، والمراد مشولين ، لأن المعنى يرتاح إليها بعض الشيء . أو لعلّها شَوْلم ، إشارة إلى الرقية التي خدع الغني بها اللصوص الذين جاؤوا بيته ليلاً ؛ وقصتهم في باب برزويه من كليلة ودمنة .

وكذلك لفظة شوابير ، في قوله يصف الحلواء : « مُجَاجة الزنابير ، أجريَتْ على شوابير . » فإن كتب اللغة لم تذكرها ، وهي حضرية مولّدة ، وإنّما ذكرها دوزي في معجمه ، وأورد لها معنى لا يطابقها في هذا الموضع ، فشرحناها بالاستناد إلى بعض تعريفه لها ، ثم إلى ما نعلمه عنها من اصطلاح العامّة عندنا ، فقلنا : هي قِطَع لها شكل الزاوية ، كما يُرى في تقطيع الحلواء .

فالجهود المحمودة التي بذلتها لجنة كلية الآداب في مصر لتصحيح نص الذخيرة ، لم تصرف عنّا مشقة البحث والتنقيب ، والشرح والتخريج ، لنشر رسالة التوابع والزوابع مصحّحة منقّحة ، مذلّلة العِقاب ، قريبة التناول .

تاريخها

ليس في أخبار ابن شُهيد ذكر للسنة التي وضع فيها رسالة التوابع والزوابع ؛ غير أن المستشرق بروكلمن يزعم أنّها صُنّفت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة . ومعلوم أن أبا العلاء ألّف رسالته الإلهيّة في أثناء عزلته سنة ٤٢٤ هـ (١٠٣٢ م) فيكون أبو عامر قد أنشأ التوابع والزوابع سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) على رأي العالم الألماني .

فأمّا أن تكون رسالة ابن شُهيد كُتبت قبل رسالة المعري فهذا لا إشكال فيه ، لأن أبا عامر توفّي سنة ٤٢٦ هـ أي بعد ظهور رسالة الغفران بنحو سنتين ؛ وكان قد اعتلّ قبلها بضع سنوات ، وغلب عليه الفالج في مستهل ذي القعدة من سنة ٤٢٥ مدة سبعة أشهر إلى أن مات في آخر جمادى الأولى من السنة التالية . ومع أنّه لم يعطّل لسانه ، فينقطع عن قول الشعر ، إلاّ أن ما كان ينتابه من الأوجاع العظيمة ، وضغط الأنفاس ، وعدم الصبر ، خليق بأن يمنعه عن القيام بعمل أدبي طويل النفَس كرسالة التوابع والزوابع . ولكن الإشكال في تأريخ السنة التي أنشئت فيها ، والمستشرق بروكلمن لم يدلنا على أي شيء اعتمد في قوله إنها وُضعت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة . فرأينا أن نتقرّى هذا البحث في فصولها التي بين أيدينا ، لعلنا نصل إلى نتيجة مرضية ولو قليلاً .

فأوّل ما يبدو لنا في مدخلها تبجح أبي عامر في خطابه لأبي بكر بن حزم ، لأنّه « أوتي الحُكم صبيّاً ، وهزّ بجذع نخلة الكلام ، فاسّاقطّ عليه رُطَباً جنيّاً . » فنعلم أن صاحبنا كان فتّى عندما توفر على تصنيف رسالته . ونجد هذه الإشارة إلى شبابه في قول تابع المتنبي عندما سمع شعره : « إن امتدّ به طلَق العُمُر ، فلا بدّ أن ينفث بدُرر ، وما أراه إلا سيُحتَضَر ، بين قريحة

كالجمر ، وهمّةٍ تضع أخمَصه على مَفرِق البدر . » ثم في حديثه مع بغلة أبي عيسى : « فقالت : ما أبقت الأيّام منك ؟ قلت : كما ترين . قالت : شبّ عمرو عن الطوق ! »

فهذه الإشارات إلى صباه أو إلى شبابه أو إلى مجاوزته سن الحداثة ، لا تأذن لنا بأن نجعل رسالة التوابع والزوابع وليدة أواخر حياته ، لأنها من دلائل فتوّته ؛ فعلينا أن نسأل فصول الكتاب عن السنة التي وُلدت فيها ، فقد تكون أهدى لنا من كلام المؤرخين .

ومن حسن الحظ أن أبا عامر ضمّن رسالته هذه نُتَفاً من أخباره وشؤونه ، وأورد فيها طائفة من أشعاره ، وذكر أشخاصاً ، منهم قضوا نحبهم قبل تأليفها ، ومنهم كانوا أحياء ، على أنّه لم يورد خبراً يتصل بكهولته ، ولا شعراً قاله في مرضه أو بعد فتور شبابه . فمن أخباره ما يتعلق بحداثته وطلبه العلم : « فاتّبعتُ الدواوين ، وجلست إلى الأساتيذ ، فنبض لي عرق الفهم ، ودرّ لي شريان العلم بمواد روحانية . » ومنها ما يتناول خصومه الذين اتّهموا شعره وطعنوا عليه عند المستعين ؛ وكانت خلافته من سنة ٤٠٣ هـ إلى سنة ٤٠٧ هـ .

بيدَ أن الرسالة كُتبت بعد هذا العهد ، كما تدل الأشعار المدونة فيها ، على اختلاف أغراضها . فقصيدته التي قالها ، وهو في سجن العلويين ، يصح أن تكون في خلافة عليّ بن حمّود (٤٠٧ — ٤٠٨) ، وهذا ما نرجحه ، لما عُرف به من الشدة والتنكيل والمصادرة ، واعتقال الذين كانوا في خدمة المستعين . أو في خلافة أخيه القاسم التي امتدّت إلى أن جاء يحيى بن عليّ ينازع عمه المُلك سنة ٤١٢ هـ . فاستولى على قرطبة ، وتلقب بالمعتلي ؛ واتصل به أبو عامر . غير أن القاسم عاد إلى قرطبة وملكها سنة ٤١٣ هـ . وهرب يحيى إلى مالقة ، فربما سُجن ابن شُهيد في تلك السنة لحظوته عنده ، وكثرة مدائحه فيه . وإذا لم يصحّ ذلك ،

وصحّ سجنه في زمن عليّ ، فبعض مدحه ليحيى مرويّ في التوابع والزوابع ممّا يدل على أنها وُضعت بعد سنة ٤١٢ . وفيها أيضاً رثاؤه لأبي عبيدة حسان بن مالك ؛ وهذا استوزره المستظهر عبد الرحمن الخامس سنة ٤١٤ هـ ، كما يخبرنا الفتح ابن خاقان في « مطمح الأنفس » ولكنه لم يذكر سنة وفاته . وكذلك قصيدته التي يمدح بها صديقه أبا محمد بن حزم ، ويطري تأويلاته الشافعيّة :

فسلٌ من التأويلِ فيها مهنّداً ، أخو شافعيّات ، كريمُ العناصرِ

وابن حزم كان يميل إلى المذهب الشافعي في عنفوان شبابه ، فتعصّب له وناضل عنه ، حتّى وُسِم به ونُسب إليه . ولمّا سقطت الدولة العامريّة سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) هجر قريته مَنت ليشَم من أعمال لَبْلة (Niebla) وشخص إلى المريّة (Alméria) فراراً من الحرب الأهلية ، وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة . ثم استقامت حاله في خلافة المستعين ، لمغالاته في التشيع لبني أمية ، حتّى إذا قُتل المستعين ، اعتُقِل وحُبس بضعة أشهر . وذهب بعدها إلى بلنسية ، فاتصل بالمرتضى عبد الرحمن الرابع الخليفة الأموي ، إلى أن قُتِل سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) فقفل إلى بلده . وفي سنة ٤١٤ هـ استوزره المستظهر عبد الرحمن الخامس مدّة خلافته القصيرة . فمدحُ ابن شُهيد له بشافعيّاته ينبغي أن يكون خلال تلك السنوات ، لأن ابن حزم عدل عن المذهب الشافعي بعد ذياده العنيف عنه ، فنراه في شاطبة سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) يصنّف كتاب طوق الحمامة ، وكتاب الفِصَل ، في الملل والأهواء والنِّحَل ، ويتبع مذهب الظاهرية ، آخذاً برأي داود بن عليّ وأتباعه ، منحرفاً عن غيره من المذاهب .

فالعدد الذي اعتمده المستشرق بروكلمن بيّن الغلط ، لأن القصائد التي أشرنا إليها ، وذكرنا أنها وردت في رسالة التوابع والزوابع ، لا تسمح لنا بأن نجعل

ولادتها سنة ٤٠٤ ﻫ ؛ فهي إنّما أبصرَت النور بعد سنة ٤١٤ ﻫ ، ولم تتقدّم رسالة الغفران بعشرين سنة ، بل ، على ما بدا لنا ، بتسع سنوات أو أقل ، فقد كتبها أبو عامر في قوة شبابه بعدما نيّف على الثلاثين .

هدفها

عرفنا أن أبا عامر كان كثير الخصوم والحسّاد، ولقي منهم عنتاً وأذيّة وضيماً لم يصبر له ، فانبرى يواقعهم ويناضلهم ، وينتقص أدبهم ، ويبسط آراءه في المنظوم والمنثور ، والفن والجمال . فرسالة التوابع والزوابع لا تعدو هذا الغرض الذي يرمي إليه ، وهو الطعن على أنداده ومنافسيه من الوزراء والأدباء ، وأهل السياسة والقلم ؛ ثم المنافحة عن أدبه بالرد على غمزات نُقّاده ؛ ثم إظهار محاسنه وفضائله في المتقدمين والمتأخرين .

فقد عرض لمغتابيه عند المستعين ، منددا بضعفهم وعجزهم عن لحاقه ؛ وألحّ بالإزراء على أبي القاسم الإفليلي ، فنفس عليه بعلمه ومعرفته ، ودعاه إلى مباراته بالوصف شعراً ونثراً . وسخر بأدباء بلده ، ونسب الغباوة إلى أهل زمانه ، وعرّاهم من صحة اللغة ، وحسن البيان . وجعل الإوزّة الحمقاء تابعة لشيخ من النُّحاة ؛ وقال لبغلة أبي عيسى : « من إخوانك من بلغ الإمارة ، وانتهى إلى الوزارة . »

وما تجشم الرحلة الأدبية إلى وادي عبقر إلاّ ليلقى توابع الشعراء والكتّاب ، وينال منهم إجازة النظم والخطابة ؛ فأجازه امرؤ القيس ، وطرفة ، وقيس بن الخطيم ، وأبو تمام ، والبحتري ، وأبو نواس ، وأبو الطيّب ، وعبد الحميد ،

والجاحظ ، وبديع الزمان ، وسواهم . وأسمعهم من أشعاره ورسائله ، وفاخرهم بإعراق بيته في الشعر ، ونقض أقوالهم في أدبه ، وإنّما هي أقوال نُقّاده ، وعارضهم في قصائدهم وأوصافهم ، فقال أبو نواس : « هذا شيء لم نُلهَمه نحن . » وقال أبو الطيّب : « إن امتدّ به طلَق العُمُر ، فسوف ينفث بدُرر . » وقال عبد الحميد والجاحظ : « اذهب فإنّك شاعر وخطيب . » وضرب صاحب بديع الزمان الأرض برجله ، عندما سمع منه وصف الماء ، فانفرجت له ، فغاب فيها عن العيان ، لما لحقه من الخزي والانكسار .

فكيفما سرنا في رسالة التوابع والزوابع نجد أبا عامر شديد الإنحاء على خصمائه ، شديد المباهاة بأدبه ونبوغه ؛ يناقش الشرق والغرب ، والقديم والمحدَث ، ويدفع حملات النُّقّاد والمتعنتين ، ولا يرضى أن يُجاز إلا شاعراً وخطيباً على السواء .

أقسامها

قسمنا رسالة التوابع والزوابع إلى مدخل وأربعة فصول ، ونشرع الآن في تعريف هذه الأقسام تسهيلاً لجمهرة القراء .

المدخل – زهير بن نمير

يتحدّث أبو عامر في مدخل رسالته إلى أبي بكر بن حزم ، فيذكر له كيف تعلم ونبض له عرق الفهم ، بقليل من المطالعة ، ثم ينتقل إلى خبر حبيب له مات ،

فأخذ في رثائه ، فأرتج عليه ، وإذا بجني اسمه زهير بن نُمَير يتصوَّر له ، ويلقي إليه بتتمة الشعر ، رغبة في اصطفائه ، كما تصطفي التوابع خلاّنها ، فتتأكّد بينهما الصحبة ؛ فأصبح ، كلّما سُدَّت بوجهه مذاهب الكلام ، يدعو تابعه بأبيات لقِنها عنه ، فيمثل له ، ويوحي إليه .

الفصل الأول ـ توابع الشعراء

يسأل أبو عامر صاحبه أن يُزيره أرض التوابع والزوابع ، فيطير به على متن جواده ، حتّى ينزل وادي الأرواح ، فيزور صاحب امرىء القيس ، وصاحب طرفة من الجاهليين ، ويرغب في التحول إلى العبّاسيين مبتدئاً بتابع أبي تمام ، فيلقى في طريقه شيطان قيس بن الخطيم من شعراء الجاهلية . ثم يصير إلى توابع الطائيّين وشاعر الحمرة ، وينتهي به المطاف عند « خاتمة القوم » صاحب أبي الطيّب المتنبي . وفي زياراته هذه يساجل الشعراء ويعارضهم ويذاكرهم ، ويأخذ الإجازة منهم .

الفصل الثاني ـ توابع الكتاب

ويرغب أبو عامر في لقاء الكتّاب ، ويدعوهم الخطباء ، ولولا شوقه إلى الشعراء ، لكانوا عنده أولى بالتقديم . فيسير إليهم مع زهير ، وقد اجتمعوا في بعض المروج للمذاكرة ، وفيهم تابع الجاحظ وتابع عبد الحميد . فيأخذان عليه شغفه بالسجع ، فيدافع عن نفسه ، فيجد من صاحب عبد الحميد عنفاً ، فيقابله

بالطعن على بداوة أسلوبه ، فيبتسم له ويباسطه . ثم يقرأ عليهما رسالة الحلواء ، فيضحكان منها ، ويستحسنانها . ويشكو إليهما أمر حسّاده ، عند المستعين ، وفيهم أبو القاسم الإفليلي ، فيتصدّى له تابعه بالنقد والتجريح ، فيردُّ عليه وينفسه بأوصافه ، وإذا بصاحب بديع الزمان يدخل بينهما ، فيعارضه أبو عامر في وصف الماء ، حتى يخجله . ثم يجيزه صاحبا الجاحظ وعبد الحميد شاعراً وخطيباً .

الفصل الثالث ـ نقاد الجن

يحضر أبو عامر وتابعه مجلس أدب من مجالس الجن ، فيدور الكلام على بيت للنابغة تداول الشعراء معناه من بعده ، ولم يلحقوه ، وينشد بعض الجن أبياتاً في هذا المعنى ، يتسامى بها على النابغة ، وإنّما هي من نظم أبي عامر . ثم يبحث الجني في الطريقة التي تحسن بها سرقة الشعر دون أن يفتضح صاحبها ؛ ويسأل أبا عامر أن يُسمعه كلاماً يرعى تِلاع الفصاحة ككلام أبي الطيّب ، فينشده أمثلة من قصائده ، ويُدلّ بأشعار أجداده وأبيه وعمّه وأخيه .

الفصل الرابع ـ حيوان الجن

يسير أبو عامر وزهير في أرض التوابع والزوابع ، فيشرفان على نادٍ لحمير الجن وبغالهم ، وقد وقع الخلاف بينها في شعرين لحمار وبغل من عشاقها ،

فتدعوه للحكم فيهما ، ويعرف من بينهن بغلة أبي عيسى ، فيتحدّث إليها ، ويتذكران دار الإنس . ثم تعترضه إوزة في بركة ماء ، هي تابعة لبعض الشيوخ ، تريد مناظرته في النحو والغريب ، فيردعها ، ويذكّرها بسخفها وحمقها ، وينتهي عندها ما بلغ إلينا من رسالة التوابع والزوابع .

هي ورسالة الغفران

أفضى بنا البحث في تاريخ رسالة التوابع والزوابع إلى الاستدلال على أنها تقدّمت رسالة الغفران ببضع سنوات ؛ فغير مستنكر أن يكون أبو العلاء قد اطّلع عليها ، فنبّهت فيه فكرة الرحلة السماويّة ، ثم جاءت رسالة ابن القارح تدعوه إلى تصنيفها . ولا يدفع هذا الرأيَ بُعدُ الشقة بين قرطبة والمعرّة ، وقلّة انتشار الأدب الأندلسي في الشرق ؛ فإن ابن شُهيد لم يكن من المغمورين عند المشارقة ، على تعصبهم لأدبهم ، واستخفافهم بأدب المغاربة . فقد روى أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر طائفة صالحة من كلامه . والثعالبي وُلد سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) أي قبل ولادة أبي عامر باثنتين وثلاثين سنة ؛ وتوفّي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) أي بعد ثلاث سنوات من وفاة أبي عامر ؛ فهو معاصر له ولأبي العلاء . وصنّف كتابه يتيمة الدهر ، في صيغته الأولى ، سنة ٣٨٤ هـ (٩٤٤ م) والعمر في إقباله ، والشباب بمائه ، كما يقول في مقدمته . ثم أعاد النظر فيه ، فلم ترضَ نفسه عنه ، فاستأنف العمل ، وما زال يبني وينقض ، ويزيد وينقص ، ويمحو ويثبت ، حتى أخرج نسخته الأخيرة من بين النسخ الكثيرة ، ولم يتم له هذا الأمر إلاّ بعدما أدرك عصر السن والحنكة ، فتسنى له أن يدوّن من آثار ابن شُهيد بعض مدائحه في يحيى المعتلي سنة ٤١٢ هـ ، وشيئاً من رثائه لأبي عبيدة بن مالك وزير المستظهر

سنة ٤١٤ هـ ، وأوصافه للحلواء ، والبرغوث والثعلب ، وهي واردة في رسالة التوابع والزوابع . وإذا كان أبو عامر قد أنشأها قبل تصنيف رسالته هذه ، فإن وصفه للماء ، ورواه الثعالبي ، هو من صُلب التوابع والزوابع كما نرجح ، وضعه خصوصاً لينافس به صاحب بديع الزمان ؛ فتكون هذه الرسالة قد هاجرت إلى المشرق ، في حياة مؤلفها ، مع غيرها من آثاره ، وأخذ منها أبو منصور إلى يتيمته . فمن المعقول أن يقف عليها أبو العلاء المعري فيتأثّر بها ، وهو ، على ما نعرفه ، مغرى بالقراءة ، كلِف بالدرس والاطّلاع .

ولكن لا نزعم أنّه انسحب على أذيالها في رسالة الغفران ، فإن الشبه الذي نجده بين الرسالتين لا يحرم أبا العلاء حق التأليف ، وكلتاهما تسير في طريقٍ معبّدٍ لها ، وترمي إلى هدف مخصوص بها . فإذا قصد الكاتبان عالم الأرواح في قصتيهما ، فطريق أبي عامر قادته إلى وادي الجن ، وطريق المعري قادته إلى الآخرة . وإذا توافقا في الطواف على الشعراء ، وعقد مجالس الأدب والمناظرة والنقد ، فإن أبا عامر توخى هدم خصومه وحسّاده ، وبناء فضله ونبوغه ، وأمّا أبو العلاء فقد شاء أن يعبث بعقيدة الغفران ، ويتهكم أهلَ عصره في تصورهم الجنّةَ حافلة بالملذات المحسوسة ، والنارَ مشبعةً بألوان العذاب والتنكيل ، وإن لم يفته الإدلال بعلمه وسعة اطّلاعه .

ووجّه المعري رسالته إلى رجل يُعرّف بابن القارح ، كما وجّه ابن شُهيد رسالته إلى رجل يدعى أبا بكر بن حزم ؛ إلاّ أن الكاتب الشامي جعل صاحبه بطلاً لقصته ، تدور عليه حوادثها ؛ ولم يذكر الكاتب الأندلسي صاحبه إلاّ في بدء رسالته ، ثم سكت عنه ، وأقام من شخصه بطلاً للقصّة يتعهّد حوادثها بنفسه ، مستصحباً تابعه زهير بن نمير دون أن يولّيه عملاً يستحق الذكر ، غير التعريف بالأشخاص والأماكن .

وبنى موضوعه على ما عرف وشاهد من مجالس الأدب والمناظرة في زمانه ؛ وقبل زمانه ، وعلى ما بلغ إليه من عقيدة العرب الأقدمين ، وهي أن لكل شاعر رئيـّاً من الجانّ يحبه ، ويتبعه ، ويوحي إليه . غير أنّه لم يوفّق في تصوير عالم الجن ، وغرائب أرضه وخلقه ، وما اشتهر عنهم من القدرة على الحوّلة والإتيان بالخوارق التي يعجز عنها الأناسيّ . فما نرى من أحوالهم العجيبة إلاّ لمحات ضئيلة لا يغنى بها أدب الخرافات والأساطير ، كما في كلامه على جواد زهير بن نُمَير ، وكيف طار بهما إلى أرض التوابع . أو في حديثه عن تابع أبي تمام : « فانفلق ماء العين عن وجه فتى كفِلقة القمر ، ثم اشتق الهواء صاعداً إلينا من قعرها ، حتى استوى معنا . » أو قوله في زُبدة الحِقَب صاحب بديع الزمان : « فلمّا انتهيتُ في الصُّفة ، ضرب زبدة الحِقَب الأرض برجله ، فانفرجت له عن مثل بَرَهوت ، وتدهدى إليها ، واجتمعت عليه ، وغابت عينه . » ومثل ذلك أخبار حيوانات الجن في اجتماعها وأحاديثها . فعالَم ابن شُهيد إنسيّ ، وإن أضافه إلى جِنّة عبقر ؛ وتوابع الشعراء والكتّاب جديرة بأن تكون مُثُلاً لأصحابها ، لا أن تُعَدّ في الجِنّان ، فليس في وادي الأرواح شيء يختلف عمّا في وادينا من المخلوقات الحيّة ، وغير الحيّة ؛ سوى ما أشرنا إليه ، وسوى أن الحيوان عاقل ناطق كما في كليلة ودمنة ، وشاعر عاشق متغزل كما في عبث بشار .

وإذا قلنا إن هذه الأرواح من عالَم المُثُل ، فما نريد به الإفراط على أفلاطون وأتباعه من فلاسفة العرب ، وإنّما نقصد أن أبا عامر ألبس التوابع أثواب أصحابها ، فجاءت على غِرار المُثُل الأفلاطونيّة في بعض حدودها ، وأبانت عن شخصيّات الشعراء والكتّاب في الصفات والأخلاق والآداب . فصاحب امرىء القيس فارس على فرس شقراء تلتهب ، في وادٍ ذي دوح تتكسّر أشجاره ،

وترنّم أطياره ، كدارة جُلجُل ؛ وتابع قيس بن الخطيم فارس كأنّه الأسد ، غضوب يُخشى شره ، ويُتّقى تهديده ، وكذلك كان الشاعر الجاهلي في بطشه وانتقامه . ونجد رئيَّ أبي تمام يعنى بالمدح والرثاء كصاحبه الطائي ، ويوصي أبا عامر ألاّ يكدّ قريحته ، إذا دعته النفس إلى القول ؛ وأن يُنقّح شعره ، بعد جَمام ثلاثة أيّام من نظمه ، فيذكرنا بوصيّة أبي تمام للبحتري . ونسمع قرع النواقيس بذات الأكيراح من دير حنة ؛ وتبدو الرهابين مشدّدة بالزنانير ، بيض اللحى والحواجب ، قد قبضت على العكاكيز ؛ ثم نشرف على بيت قد اصطفّت دنانه ، وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسَّبَلة ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وغلبت عليه نشوة الراح فما يستفيق إلاّ على صوت ابن شُهيد ينشده خمرية ، فيستزيده ، ثم يسأله إنشاد قطعة من مجونه . وما ذاك الشيخ سوى حسن الدنان شيطان أبي نواس . ونرى صاحب المتنبي فارساً على فرس بيضاء ، ينظر من مقلة شوساء ، قد ملئت تيهاً وعُجباً ، ولا يرضى الشعرَ إلاّ متيناً شديد الأسر ، شأنَ أبي الطيّب . ويطل علينا شيخ أصلع ، جاحظ العين اليُمنى ، عليه قلنسوة طويلة ، تذكرنا بطويلة أبي عثمان في حضرة القاضي أحمد بن أبي دؤاد ؛ وإلى جنبه شيخ آخر ، هو صاحب عبد الحميد ، وكلاهما يكره السجع والتكلف . فإذا فات أبا عامر بن شُهيد براعةُ التصوير لعالم الجن ، فما فاته إحسانُ تمثيل الأدباء في أشخاص توابعهم ، وهذا شيءٌ يحمد عليه .

ونتبين من خلال طوافه ومساجلاته ، إجلاله لبعض الشعراء والكتّاب ، وجرأته على بعضهم الآخر ، فبينا نراه يلقى عُتَيْبَةَ بن نوفل صاحب امرىء القيس ، فيتلكأ عن الإنشاد في حضرته ، ويهم بالحيصة ، ثم ينظر إلى حسن الدنان ، فتدركه مهابته ، ويأخذ في تعظيمه لمكانه من العلم والشعر ؛ نجده يتعرض لأبي الطبع تابع البحتري ، فيباريه في القريض ، فيسوّد وجهه ، ويكرُّ راجعاً إلى

ناوَرْدِه دون أن يسلّم ؛ وينافس زُبدة الحِقَب صاحب بديع الزمان في وصف الماء ، فيشقّ الأرض برجله ، فتبتلعه ، من شدة الحجل . وهو في الغالب يستطيل على معاصريه أكثر منه على المتقدمين ، ولأهل الجاهليّة في نفسه حرمة ووقار .

وأمّا أبو العلاء فإنّه بنى موضوع رسالة الغفران على ما ذُكر من وصف الجنة والنار وموقف الحساب ، في القرآن والحديث ، وتصانيف المتصوفة مثل كتاب التوهم للمحاسبي ، وما جاء من القصص والشروح والتفصيلات على خبر المعراج . فكان في تصوير عالم الآخرة أبرع من أبي عامر في تصوير عالم الجن ، وإن يكن الخيال ، عند هذا وذاك ، ينساق إلى الاتّباع أكثر منه إلى الإبداع ؛ فظهرت الجنة بأنهارها وأشجارها ، وطعامها وشرابها ، وجمال حُورها ، من الصالحات الناجيات ، وفيهن من كانت دميمة سوداء ، فأصبحت في الجنان حوراء عيناء ، شفافة بيضاء ، أو من المنشآت في الخلد أبكاراً عُرُباً أتراباً ، تنشقّ عنهن الأثمار ، فيخرجن منها كواعب يرقصن ، فتهتز أرجاء الجنة . والصالحون متّكئون على مفارش من السندس ، أو يحملهم الحور والولدان على سُرُر من زبرجد أو عسجد ، وهم مستلقون على ظهورهم ، منعّمون بالراحة الكبرى . فإذا رأوا عنقوداً من العنب أو غيره ، انقضب عن الشجرة بمشيئة الله ، وحملته القدرة إلى أفواههم ، إذ لا همّ لها إلا تلبية شهوات الأبرار الناجين .

وموقف الحشر شديد الهول والظمإ ، كثير الزحام ، لا يدخل الجنة فيه إلا من غُفِر له ، وخُتِم عمله بالتوبة في الديوان الأعظم ، وأُعطي جواز المرور ، فينغب من الحوض نغبات لا ظمأ بعدها ، ثم يعبر الصراط إلى جنّات النعيم .

ويرى الناظر من المطّلَع إلى النار إبليس يضطرب في الأغلال والسلاسل ؛ ومقامعُ الحديد تأخذه من أيدي الزبانية . فإذا التمس منك ، وقد نجوتَ بإذن الله ، حاجة ، لا تستطيعها له ، لأن الآية سبقت في أهل النار : « ونادى أصحابُ

النار أصحابَ الجنة ، أن أفيضوا علينا من الماء ، أو ممّا رزقكم الله . قالوا : إنَّ الله حرَّمها على الكافرين ! » وهذا صخر أخو الخنساء كالجبل الشامخ ، تضطرم النار في رأسه : كأنّه علَم في رأسه نار . وذاك بشار قد أُعطي عينين لينظر إلى ما نزل به من النّكال ، فإذا أغمضهما حتّى لا ينظر ، فتحهما الزبانية بكلاليب من نار . وهناك عنترة يتلدّد في السعير ، والأخطل يتضور ويزفر زفرةً تعجب لها الزبانية . فرسالة الغفران لا تشتمل على أبلغ من ذلك في وصف النار والعذاب ، وإنّما هي أدقّ تصويراً للجنة وموقف الحساب .

وأقام أبو العلاء في الفردوس المآدب الأنيقة ، ومجالس اللهو والشراب ، والرقص والغناء ، على ما هو مألوف في الحياة الدنيا ، مع ما استفاده من أوصاف الكتب الدينيّة ، أو زيّنه بخياله وفنه ، كذكر طاووس الجنة ، وانبعاثه حيّاً بعد ذبحه وأكله ، أو حديثه عن شجرة الجوز ، وانشقاق كل جوزة منها عن أربع جَوارٍ يرقصن على الأبيات المنسوبة إلى الخليل .

وعَقَدَ حلقات الأدب والمذاكرة شأنَ أبي عامر في التوابع والزوابع ، فطوّف صاحبَه ابن القارح على الشعراء وعلماء اللغة ، ينظر في شؤونهم وأحوالهم ، ويسألهم : بمَ غُفِر لهم ، ويستفسرهم أموراً تختص بهم ، أو يوقع بينهم المشاحّة والمناظرة ، على مثال ما تقع بين الأدباء في الدار العاجلة ، مع أن الجنة رحضت ما في صدورهم من الحقد والشحناء ، فالأعشى صار عشاه حَوَراً ، وانحناء ظهره قِواماً ؛ وقد شفع له الرسول ، لحرمة يمتّ بها إليه في مدحه ، فغُفر له ، وأُدخِل الجنان على أن لا يشرب فيها خمراً . وزهير شابّ كالزهرة الجنيّة ، كأنّه ما سئم تكاليف الحياة ، ولا عُمّر تسعين حجّة ؛ غُفِرَ له لإيمانه بالله ، قبل الإسلام ، ووصيته لبنيه بأن يطيعوا القائم الذي يدعوهم إلى عبادة الله . وعَبيد بن الأبرص غُفر له ببيت من الشعر يقول فيه : « وسائلُ الله لا يخيبُ . » فكثر رواته وحفّاظه ،

وما زال يُنشَد ويُحفظ ، حتى أسقط العقوبة عن صاحبه ، وشملته الرحمة ببركته. وعديّ بن زيد مات نصرانيّاً فغُفر له ، ولم يدرك الإسلام لتقوم الحجّة عليه . وهو صاحب قنص ولهو في الجنة ، كما كان في الدار الفانية . ويسأله ابن القارح عن إعراب بيت له استشهد به سيبويه ، فيجيبه : « دعني من هذه الأباطيل ! » وكذلك كان جواب بشار من أسفل الجحيم ، عندما سأله عن تسكين باء السَّبْد في قافيته ، فقال : « دعني من أباطيلك ، فإني لمشغول عنك ! » ويجتمع النابغة الجعدي والأعشى في مجلس غناء ، فتحدث بينهما مُلاحاة أدبية ، يتشاتمان فيها ، ويتنازعان فضل الشاعرية والحسب ، فيستوقفهما ابن القارح ، ويقول لهما : « لا عربدة في الجنان . »

ويشتد أبو العلاء في النقد والغمز على المحدَثين أكثر منه على الأقدمين ، فإذا عاب الإسناد في قافية عمرو بن كلثوم ، لم يزد على أن يقول بلسان ابن القارح : « لوددت أنّك لم تساند في قولك . » ويأبى أن ينسب إلى امرىء القيس أبياتاً من التسميط ركيكة ، ظاهرة النحل ، فجعله ينكرها فيقول : « والله ، ما سمعت هذا قط . » مع أنّه لم يترفّق في نقد بشار ، على إعجابه بشعره ، ولا أولى أبا تمام شيئاً من عطفه ، حين ترك عنترة يقول في كلامه : « أمّا الأصل فعربي ، وأمّا الفرع فنطقَ به غبي ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب . »

وكان لأبي عليّ الفارسي نصيب من نقده وسخره . فألّب عليه جماعة من الأدباء في الجنّة ، تلومه وتُعنته لتأويلاته المستهجَنة في اللغة والنحو ، فينقذه ابن القارح منهم ، ويبعدهم عنه .

وأنزل سخطه على الرجّازين ، فجعل بيوتهم دون سائر البيوت السماوية ارتفاعاً ، كما تنخفض أبيات الرجز عن أبيات القصيد ، وعمد إلى صاحبهم رؤبة

ابن العجّاج ، فأكثر الإنحاء عليه ، وعاب قوافيه النافرة ، وصلابة ألفاظه ، وضيق أغراضه ومعانيه .

وللجن في رسالة الغفران موضع باسم جنّة العفاريت ، ليس عليها النور الشعشعاني كجنّة الأناسي ، وإنّما هي أدحال وغماليل ، وأهلها يدركهم المشيب ، مع أن سائر أهل الجنّة شباب ؛ لأن الجن أعطوا الحَولة في الدار الماضية ، فكانوا يتصورون ، على مشيئتهم ، حيّة أو عصفوراً أو حمامة ، فحُرموا الشباب ، وفيض النور الإلهي في الجنّة ، وصُوّر بنو آدم فيها أحسن تصوير . وهنا يأتي أبو العلاء على ذكر أشياء من خصائص الجن كتحولات أبي هدرش ، ورجم العفاريت بالشُّهب المحرقة ، ممّا لم يُعنَ به أبو عامر في رسالته ، إلاّ أنّه لم يرفع شأن التوابع مثله ، بل عدهم أطيفالاً من الجن ، ينفثون إلى الإنس القليل من الشعر والأوزان : « وهل يعرف البشر من النظيم إلاّ كما تعرف البقر من علم الهيئة ، ومساحة الأرض ؟ ! »

والحيوان عند المعري عاقل ناطق ، كما هو عند ابن شُهيد ، غير أنّه يستطيع التحول إذا شاء ، فإن حيّة الفردوس همّت بأن تنتفض من إهابها فتصير مثل أحسن غواني الجنّة ، ليترشف الشيخ ابن القارح رضابها ، وهذا لم تستطعه بغلة أبي عيسى في التوابع والزوابع ، مع ما بها من الشوق إلى أبي عامر . وكلاهما ذكر الإوز في رسالته ، فأمّا إوزة ابن شُهيد ، فإنّها أديبة نحوية تبحث في الأصول والفروع ، ولكنّها بلهاء حمقاء ، كما هو معروف عن بنات جنسها ؛ وأمّا إوزة المعري ، فقد نفضت عنها في الجنّة بلَه الإوز ، وبوسعها أن تتحوّل كاعباً حسناء ، ترفل في وشي الفردوس ، وتحسن الغناء والضرب على الأوتار . وقد أبدع أبو عامر في وصف حركات إوزته وتقلّبها في الماء ، كما أبدع أبو العلاء في سخره اللطيف ، حين أراد جماعة الشعراء أن يقتسموا الإوزات المغنيات ، فقال

لبيد بن ربيعة : « إن أخذ أبو ليلى قينة ، وأخذ غيره مثلها ، أليس ينتشر خبرها في الجنّة ، فلا يُؤمَن أن يُسمى فاعلو ذلك أزواجَ الإوز ! »

والسخر في رسالة الغفران من أخصّ ميزاتها الأدبية ، فإن ضرير المعرّة على تشاؤمه المظلم ، يلجأ إليه في تصانيفه ، تسنيداً لآرائه الفلسفية ، وإرضاء لشكه واضطرابه في الغيبيات والعقائد الدينيّة ؛ ويميل به في الرسالة إلى الدعابة والعبث ، فهو ناعم الملمس لا خشونة فيه ، عميق الغور ، يغشيه ستار من الإيمان والاستدلال بالآيات والأحاديث ، فإذا صنع ابن القارح مأدبة في الجنان ، قال : وتلك لذة يهبها الله ، عزّ سلطانه ، بدليل قوله : « وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذّ الأعين ، وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنّة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون . » وإذا انفلقت ثمار الجنّة عن حوريات تبرق لحسنها ، قال : هذا كما جاء في الحديث : « أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عين رأت ، بَلْهَ ما اطّلعتم عليه . »

فمدار سخره على ما يتصوَّر الناس من الأشياء الماديّة في الآخرة ، ثم على عقيدة الغفران ، وسهولة الحصول عليه عندهم ، فربما غفر الله للخاسر ببيت من الشِّعر يُحفظ ويُروى ، كما غفر للأعشى وزهير وعَبيد والحطيئة .

ولا تخلو رسالة التوابع والزوابع عن السخر ؛ فإن ابن شُهيد ، في تعرُّضه للشعراء والأدباء ، أخرج الكلام عليهم مُخرَجَ الهزل والتهكم ؛ إلاّ أن سخريته تتّسم بالحدّة والخشونة والإقذاع والوضوح ، كما في قوله : « وقلت للمنشدة : ما هَوِيتُ ؟ قالت : هَوِيتُ ، بلغة الحمير . فقلت : والله ، إن للرَّوث رائحة كريهة ، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعر . » وقلّما تلطف واستدق فيها ، مثل قوله للإوزة النحويّة : « محمول عنك ، أمٌّ خفيف ، لا يلزم الإوزَّ حفظُ أدب القرآن . »

وأمّا لغة التوابع فإنّها رشيقة طليّة ، موشاة أنيقة ، غنيّة بالأوصاف والصور والألوان ، بخلاف رسالة الغفران ، فإن لغتها تكاد تفتقر إلى الوشي والتصوير ، إلاّ ما اقتبس صاحبها من القرآن ، أو أخذ عن سابقيه . وهذا أمر طبيعي في كاتب ضرير طَفِـيء النور في عينيه عن الصورة واللون ، قبل سن الإدراك والتمييز . فأبو عامر يسمو على المعري برونق الديباجة ، ودقة الوصف ، ولكنّه ينحدر عنه بعمق الفكرة ، ولطافة السخر ، وقوّة الجاذبيّة ، وسحر الاستهواء ؛ وله فضل المتقدّم على كل حال .

الكتاب الثاني

رسالة
التوابع والزوابع

المدخل

زهير بن نمير

لله أبا بكر[1] ظنّ رَمَيْتَه فأصْمَيْتَ ، وحَدْسٌ أملتَه فما أشْوَيْتَ[2] ! أبدَيْتَ بهما وجهَ الجَلِيّة ، وكشَفتَ عن غُرَّةِ الحقيقة ، حين لمحتَ صاحبَك الذي تكسَّبْتَه ورأيتَه قد أخذ بأطرافِ السَّماء ، فألّف بين قَمَريها ، ونظَم فَرقَدَيها ، فكلّما رأى ثَغراً سَدَّه بسُهاها[3] ، أو لمح خَرقاً رَمَّه بزُباناها[4] ،

---

١ أبو بكر : هو أبو بكر بن حزم، كما ذكر ابن بسام ، وأسرته شهيرة في الأندلس ومنها الفقهاء والوزراء والأدباء . جاء في وفيات الأعيان : وكان بين ابن شهيد وابن حزم الظاهري مكاتبات ومداعبات . والمراد به الفقيه أبو محمد بن حزم . وذكر الفتح بن خاقان في مطمح الأنفس أن ابن حزم كنيته أبو المغيرة ، وكان هو وابن شهيد خليلي صفاء لا ينفصلان في رواح ولا مقيل . وابن حزم هذا من الوزراء الكتاب .

٢ أصميت : أي رميت فقتلت الصيد في مكانه . ما أشويت : ما أخطأت المقتل . يقال أشواه : أصاب شواه ، أي أطرافه ، لا مقتله .

٣ السهى : كوكب خفي من بنات نعش الصغرى ، مجاور للقطب ، وكان العرب يمتحنون به أبصارهم لخفائه .

٤ رمه : أصلحه . الزباني : واحد الزبانيين ، وهما كوكبان نيران في قرني برج العقرب معترضان بين الشمال والجنوب ، بينهما قيد رمح ينزلهما القمر في الليلة السابعة عشرة .

إلى غير ذلك . فقلتَ : كيف أوتيَ الحُكمَ صبيّاً ، وهزَّ بجذعِ نخلة الكلام فساقطَ عليه رُطَباً جنيّاً ؛ أما إن به شيْطاناً يَهديه ، وشيْصَباناً[1] يأتيه ! وأقسِمُ أنّ له تابعةً[2] تُنجِدُه ، وزابعةً[3] تؤيّدُه ، ليس هذا في قُدْرةِ الإنس ، ولا هذا النّفَسُ لهذه النّفْس . فأمّا وقد قلتَها ، أبا بكرٍ ، فاصِغْ أسمِعْك العَجَبَ العُجاب :

كنتُ أيّامَ كُتّابِ الهجاء ، أحِنُّ إلى الأدباء ، وأصبُو إلى تأليفِ الكلام ؛ فاتّبعتُ الدّواوين ، وجلستُ إلى الأساتيذ ، فنبَضَ لي عِرقُ الفَهْم ، ودَرَّ لي شِرْيانُ العِلم ، بموادَّ رُوحانية ؛ وقليلُ الالتِماح من النظر يزيدني ، ويَسيرُ المطالَعةِ من الكتبِ يُفيدُني ، إذ صادَفَ شَنٌّ العلم طَبَقَة . ولم أكُنْ كالثلجِ تَقْتَبِسُ منه ناراً ، ولا كالحِمارِ يحمِلُ أسْفاراً . فطعَنتُ ثُغرةَ البيانِ دِراكاً ، وأعلَقْتُ رِجْلَ طيرِه أشراكاً ، فانثالتْ[4] لي العجائب ، وانهالت عليَّ الرغائب[5] . وكان لي أوائلَ صَبْوَتي هَوًى اشتدَّ به كَلَفِي ، ثم لَحِقَني بَعْدُ مَلَلٌ في أثناء ذلك المَيْل . فاتّفقَ أنْ ماتَ مَنْ كنتُ أهْواه مدّةَ ذلك المَلَل ، فجزِعتُ وأخذتُ في رثائِه يوماً في الحائرِ[6] ، وقد أبْهِمَتْ عليَّ أبوابُه ،

---

١ الشيصبان : اسم الشيطان ، وقبيلة من الجن .

٢ التابعة : جنية تحب الإنسان وتتبعه حيث ذهب .

٣ الزابعة ، والمعروف الزوبعة ، كما في القاموس وغيره من المعجمات : رئيس للجن أو اسم شيطان ، يجمع على زوابع .

٤ انثال : انصب ، وعليه القول تتابع وكثر فلم يدر بأيه يبدأ .

٥ الرغائب ، جمع الرغيبة : الأمر المرغوب فيه ، والعطاء الكثير .

٦ الحائر : البستان .

وانفردْتُ فقلت :

تولّى الحِمامُ بظَبْيي الخُدُورِ ، وفازَ الرَّدى بالغَزالِ الغَريرِ

إلى أن انتهَيْتُ إلى الاعتِذارِ من المَلَل الذي كان ، فقلت :

وكنتُ مَلِلْتُكَ لا عن قِلًى ، ولا عن فسادٍ جرى في ضَميري

فأُرتِجَ عليَّ القولُ وأُفحِمْتُ ، فإذا أنا بفارِسٍ ببابِ المجلِس على فَرَسٍ أدْهَمَ كما بَقَلَ وجهُهُ[1] ، قد اتّكَأَ على رُمحِه ، وصاح بي : أعَجْزاً يا فتى الإنس ؟ قلتُ : لا وأبيك ، للكلامِ أحيان ، وهذا شأنُ الإنسان ! قال لي : قُلْ بعدَه :

كمِثْلِ مَلالِ الفتى للنعيم ، إذا دامَ فيه ، وحالِ السُّرورِ

فأثبَتُّ إجازتَه ، وقلتُ له : بأبي أنت ! مَنْ أنت ؟ قال : أنا زُهَيْرُ ابن نُمَيْر من أشجَعِ الجِن[2] . فقلتُ : وما الذي حَداكَ إلى التصوُّرِ لي ؟ فقال : هَوًى فيك ، ورَغبةٌ في اصطفائك . قلت : أهلاً بكَ أيّها الوجهُ الوَضّاح ، صادفتَ قلباً إليك مقلوباً[3] ، وهوًى نحوكَ مجنُوباً . وتحادَثْنا حيناً

---

١ بقل وجهه : خرج شعره .
٢ أشجع الجن : أي ينتسب إلى بني أشجع في الجن ، وابن شهيد ينتسب إلى بني أشجع في الإنس ، فبينه وبين شيطانه قرابة ، وبنو أشجع قبيلة عربية .
٣ إليك : أي شوقاً إليك . مقلوباً : مصاباً ، من قلبه : أصاب قلبه ، ويأتي مقلوباً بمعنى محولا ، فيكون المعنى محولا إليك ، يقال : قلبه ، أي حوله عن وجهه .

ثمَّ قال : متى شئتَ استحضاري فأنشِدْ هذه الأبيات :

والي زُهَيرَ الحُبُّ ، يا عزّ ، إنه ... إذا ذكرَتْه الذّاكراتُ أتاها[1]
إذا جرَتِ الأفواهُ يوماً بذكرِها ... يُخَيِّلُ لي أنّي أقبِّلُ فاها
فأغْشى ديارَ الذّاكرين ، وإن نأتْ ... أجارِعُ مِنْ داري ، هوًى لهَواها[2]

وأوثَبَ الأدهمَ جِدارَ الحائطِ ثم غابَ عنّي . وكنتُ ، أبا بكرٍ ، متى أُرتِجَ عليَّ ، أوِ انقطَعَ بي مَسْلَكٌ ، أوْ خانَني أسلوبٌ أنشدُ الأبياتَ فيُمثَّل لي صاحبي ، فأسيرُ إلى ما أرغَب ، وأُدرِكُ بقريحتي ما أطلُب . وتأكّدتْ صُحْبتُنا ، وجرَتْ قِصَصٌ لولا أن يطُولَ الكتابُ لذكرتُ أكثرَها ، لكنّي ذاكرٌ بعضَها .

---

١ والي : لحقه الخرم ، وهو حذف أول الوتد المجموع من أول البيت ، أي حذف فاء فعولن في الطويل ، فبقي عولن ، فنقل إلى فعلن .

٢ أجارع : جمع أجرع ، وهو الكثيب له جانب رمل ، وجانب حجارة ، أو هو أرض ذات حزونة يعلوها رمل .

الفصل الاول

توابع الشعراء

شيطان امرىء القيس

تذاكرتُ يوماً مع زُهير بنِ نُمَيرٍ أخبارَ الخُطباء والشُّعَراء ، وما كان يألَفُهُم من التّوابع والزَّوابع ، وقلتُ : هل حيلةٌ في لِقاء من اتّفَق منهم ؟ قال : حتى أستأذِنَ شيخَنا . وطار عنّي ثم انصرَفَ كلَمْحٍ بالبَصَر ، وقد أذِن له ، فقال : حُلَّ على مَتْنِ الجَوادِ . فصرنا عليه ؛ وسار بنا كالطائر يَجْتابُ الجوَّ فالجوَّ ، ويقطَعُ الدَّوَّ فالدَّوَّ[1] ، حتى التَمَحْتُ أرضاً لا كأرضِنا ، وشارَفتُ جوّاً لا كجَوّنا ، متفرّعَ الشجَر ، عَطِرَ الزَّهَر ، فقال لي : حلَلْتَ أرضَ الجِنّ أبا عامر ، فبمَنْ تُريدُ أنْ نَبْدَأ ؟ قلتُ : الخطباء أولى بالتّقديم ، لكنّي إلى الشعراء أشْوَق . قال : فمَن تُريدُ منهم ؟ قلتَ : صاحبَ امرىء القَيْس . فأمالَ العِنانَ إلى وادٍ منَ الأوديةِ ذي دَوحٍ تتكسّرُ أشجارُه ، وتترنّمُ أطيارُه ، فصاح : يا عُتَيبةُ بنَ نوفَل ، بسِقْطِ[2] اللّوى فحَوْمَل ،

---

١ الدو : الفلاة .

٢ بسقط : الباء للقسم .

ويومِ دارةِ جُلجُل ، إلاَّ ما عرَضْتَ علينا وجهَك ، وأنشدْتَنا من شعرِك ، وسمِعتَ من الإنسيّ ، وعرَّفتَنا كيف إجازتُك له ! فظهرَ لنا فارسٌ على فرسٍ شقراء كأنّها تلتهِب ، فقال : حيّاكَ اللهُ يا زُهَير ، وحيّا صاحبَك ! أهذا فتاهُم ؟ قلتُ : هو هذا ، وأيُّ جمْرةٍ يا عُتَيبة ! فقال لي : أنشِدْ ؛ فقلتُ : السيّدُ أولى بالإنشاد . فتطامحَ طَرْفُه ، واهتزَّ عِطْفُه ، وقبَض عِنانَ الشقْراء وضربَها بالسوط ، فسمَت تُحضِر طُولاً عنّا ، وكرَّ فاستقبلَنا بالصَّعْدةِ[1] هازّاً لها ، ثم ركَزَها وجعَل يُنشِد :

سما لك شوقٌ بعدما كان أقصَرا[2]

حتى أكمَلَها ثم قال لي : أنشِدْ ؛ فهمَمْتُ بالحَيصَة[3] ، ثم اشتدَّتْ قُوى نفسي وأنشدْت :

شَجَتْهُ مَغانٍ من سُلَيْمى وأدْؤرُ[4]

حتى انتهَيتُ فيها إلى قولي :

ومِن قُبّةٍ لا يُدرِكُ الطَّرْفُ رأسَها، تَزِلُّ بها رِيحُ الصَّبا فتَحَدَّرُ
تكَلّفتُها والليلُ قد جاشَ بَحرُهُ ، وقد جعلَتْ أمْواجُهُ تتَكَسّرُ

---

١ الصعدة : القناة المستوية .
٢ سما لك : مطلع قصيدة مشهورة لامرىء القيس ، قالها وهو ذاهب إلى بلاد الروم .
٣ الحيصة : الانهزام والهرب .
٤ المغاني : المنازل . أدؤر : جمع دار .

ومن تحت حِضني أبيضٌ ذو سَفاسِقٍ ، وفي الكفِّ من عَسّالةِ الخَطِّ أسمَرُ[1]
هُما صاحِبايَ مِن لَدُن كنتُ يافِعاً ، مُقيلانِ من جَدِّ الفتى حين يَعثُرُ
فذا جَدوَلٌ في الغِمدِ تُسقى به المنى ، وذا غُصُنٌ في الكَفِّ يُجنى فيُثمِرُ

فلمّا انتَهَيتُ تأمّلني عُتَيبةُ ثم قال : اذهَبْ فقد أجزتُك . وغاب عنّا .

شيطان طرفة

فقال لي زُهير : من تُريدُ بَعدُ ؟ قلتُ : صاحِبَ طَرَفة . فجزَعْنا[2] واديَ عُتَيْبة ، وركَضْنا حتى انتهَيْنا إلى غَيضةٍ شجرُها شَجَران : سامٌ يَفوحُ بَهاراً[3] ، وشِحرٌ[4] يعبَقُ هندِيّاً[5] وغاراً . فرأينا عَيناً مَعِينةً[6] تَسيل ، ويدُورُ ماؤها فلَكِيّاً ولا يَحُول . فصاح به زهير : يا عنترُ بنَ العَجْلان ، حَلَّ بكَ زهيرٌ وصاحِبُه ، فبخَولة ، وما قَطَعْتَ معَها من ليلة ، إلاّ ما عَرَضْتَ وجهَك لنا ! فبَدا إلينا راكبٌ جميلُ الوجه ، قد توشّحَ السَّيف ، واشتَمَل

---

١ السفاسق : جمع سفسقة وسفسوقة ، وهي فرند السيف أو طرائقه .
٢ جزعنا : قطعنا .
٣ السام : الخيزران . البهار : نبت طيب الرائحة ينبت أيام الربيع ، ورده أصفر الورق ، أحمر الوسط ، أسمن من ورق البابونج ، ويقال له العرار .
٤ الشحر أو الشحير كما في القاموس وغيره من المعجمات : اسم شجر .
٥ الهندي : أي الشجر الهندي ذو الرائحة الزكية .
٦ معينة : ظاهرة جارية على وجه الأرض .

عليه كِساء خزّ ، وبيَدِه خَطِّيّ ، فقال : مرحباً بكُما ! واستنشَدَني فقلتُ : الزعيمُ أولى بالإنشاد ؛ فأنشَدَ :

لِسُعدى بِحِزّانِ الشُّرَيفِ طُلُولُ[1]

حتى أكمَلَها ، فأنشَدتُه من قصيدة :

أمِنْ رَسْمِ دارٍ بالعَقيقِ مُحيلِ

حتى انتهَيتُ إلى قولي :

ولمّا هبَطْنا الغَيثَ تُذعَرُ وحْشُهُ ... على كلِّ خَوّارِ العِنانِ أسيلِ[2]
وثارَتْ بناتُ الأعوَجِيّاتِ بالضُّحى ... أبابيلَ ، مِن أعطافِ غيرِ وبيلِ[3]
مُسَوَّمَةً نَعتَدُّها مِنْ خيارِها ، ... لِطَرْدِ قَنيصٍ ، أو لِطَرْدِ رَعيلِ[4]
إذا ما تَغَنّى الصَّحْبُ فوقَ مُتُونِها ... ضُحَيّاً، أجابَتْ تَحتَهُمْ بصَهيلِ

---

١ لسعدى : في ديوان طرفة : لهند . الحزان : الأمكنة الغليظة الصلبة ، مفردها الحزيز . الشريف : أعلى جبل ببلاد العرب ، قاله صاحب القاموس وقد صعده ، وماء لبني نمير بنجد ، تنسب إليه العقبان ، أو واد بنجد ، وحصن من حصون زبيد باليمن ، ذكر ذلك كله ياقوت ، وفي الأصل الشديف ، والتصحيح عن ديوان طرفة . وتمام البيت : تلوح وأدنى عهدهن محيل .

٢ الغيث : أي النبات المسبب عن الغيث ، وهو مجاز مرسل . خوار العنان : أي فرس لين العطف . الأسيل : السبط المسترسل ، وتستحب الإسالة في خد الفرس ، وهي دليل الكرم .

٣ الأعوجيات : أي الخيول الكريمة ، منسوبة إلى أعوج ، فرس لبني هلال مشهور . أبابيل : متفرقة فرقاً ، جمع لا واحد له . الأعطاف : جمع عطف بالكسر ، وهو قارعة الطريق . الوبيل : المرعى الوخيم .

٤ المسومة : الخيول المعلمة بعلامات الغزو . نعتدها : أي نعدها ، من أعد .

نَدُوسُ بها أبْكارَ نَورٍ كأنّه رِداءُ عَرُوسٍ أوذِنَتْ بِحَلِيل
رَمَيْنا بها عُرضَ الصُّوارِ فأقْعَصَتْ أغَنَّ قَتَلْناهُ بِغَيْرِ قَتيل[1]
وبادَرَ أصْحابي النُّزولَ ، فأقبلَتْ كَرَاديسُ من غَضِّ الشِّواء نَشيل[2]
نُمَسِّحُ بالحَوذانِ مِنْهُ أكُفَّنا ، إذا ما اقتَنَصْنا منه غيرَ قليل[3]
فقُلنا لساقيها : أدِرْها سُلافةً شَمولاً ، ومِن عينَيك صِرفَ شَمول[4]
فقامَ بكأسَيْه مُطيعاً لأمْرنا ، يَميلُ به الإدلالُ كلَّ مَميلِ
وشَعْشَعَ راحَيْه ، فما زالَ مائلاً برأسِ كريمٍ منهُمُ وتَليل[5]
إلى أن ثَناهُمْ راكِدِينَ ، لما احتَسوا ، خَليعِينَ من بَطشٍ وفَضْلِ عُقولِ
تَشاوى على الزَّهراء ، صَرعى كأنَّهُمْ أساطينُ قَصْرٍ ، أو جُذُوعُ نَخيل[6]

فصاحَ عنترٌ : للهِ أنت ! اذهَبْ فإنك مُجازٌ . وغابَ عنّا . ثم مِلنا عنه .

---

١ العرض بالضم : الجانب . الصوار : القطيع من البقر الوحشي ، والمراد هنا قطيع من الظباء . أقعصت : قتلت . الأغن : الظبي يخرج صوته من خياشيمه . بغير قتيل : أي بغير ثأر لنا وقود .
٢ النشيل : اللحم الذي تنشله بيدك من القدر بلا مغرفة . أو العضو الذي تأخذه بيدك ، فتتناول ما عليه من اللحم بفيك .
٣ الحوذان : نبت نوره أصفر ، في الأصل الجودان ، ولا معنى له ، وقد مر وصفه لأبكار النور ، وشبهها برداء عروس ، وهنا يذكر تمسيح الأيدي بها من اللحم .
٤ الشمول : الخمر ، أو الباردة منها .
٥ التليل : العنق .
٦ الزهراء : أي الأرض الزهراء ، أو أراد بها مدينة الزهراء بالقرب من قرطبة .

شيطان قيس بن الخطيم

فقال لي زهير : إلى مَنْ تتُوقُ نفسُك بَعدُ من الجاهليّين ؟ قلت : كفاني مَن رأيتُ ؛ اصْرِفْ وجهَ قصدِنا إلى صاحِب أبي تمّام . فركَضْنا ذاتَ اليمين حيناً ، ويشتدُّ في إثرنا فارسٌ كأنّه الأسَد ، على فرسٍ كأنّها العُقاب ، وهو في عَدْوه ذلك يُنْشِد :

طَعَنْتُ ابنَ عبدِ القيسِ طَعنةَ ثائرٍ، لها نَفَذٌ ، لولا الشعاعُ ، أضاءها[1]

فاستَرَبتُ منه ، فقال لي زهير : لا عليك ، هذا أبو الخطّارِ صاحِبُ قيسِ ابنِ الخَطيم . فاستَنبي لُبّي من إنشادِه البيتَ ، وازدَدْتُ خوفاً لجُرأتِه ، وأنّنا لم نُعَرِّجْ عليه . فصرفَ إليه زهيرٌ وجهَ الأدهَم ، وقال : حيّاكَ اللهُ أبا الخَطّار ! فقال : أهكذا يُحادُ عن أبي الخَطّار ، ولا يُخْطَرُ عليه[2] ؟ قال : علمناكَ صاحِبَ قَنص ، وخِفنا أن نَشْغَلَك . فقال لي : أنشِدْنا يا أشجَعِيّ ، وأقسِمُ أنّك إن لم تُجِدْ لَيَكونَنَّ يومَ شَرّ . فأنشدْتُه قولي من قصيدة :

---

١ البيت من قصيدة لقيس بن الخطيم الأوسي . ابن عبد القيس : هو قاتل والد قيس بن الخطيم . ثائر : آخذ بالثأر . النفذ : ما ينفذ من الطعنة . الشعاع : الدم المتفرق المنتشر . أضاءها : فاعلها يعود إلى نفذ . يقول : لولا الدم المنتشر في هذه الطعنة ، لظهر منها النور ، لأنها نفذت من جانب إلى آخر .

٢ يخطر عليه : أي يمر به .

مَنازِلُهُمْ تَبْكِي إليكَ عَفاءها

ومنها :

خليليَّ عُوجَا ، باركَ اللهُ فيكُما ، بِدارَتِها الأولى نُحَيِّ فِناءها !

فلم أرَ أسْراباً كأسْرابِها الدُّمى ، ولا ذئبَ مثلي قد رعى ، ثَمَّ ، شاءها[1]

ولا كضَلالٍ كان أهدى لصَبْوَتي ، ليالِيَ يَهْدِيني الغَرامُ خِباءها

وما هاجَ هذا الشوقَ إلاَّ حَمائِمٌ ، بَكَيْتُ لها لمَّا سَمِعْتُ بُكاءها

عَجِبْتُ لنفسي كيفَ مُلِّكتَها الهوى ، وكيفَ اسْتَفَزَّ الغانياتُ إباءها ؟

ولو أنَّني أنْحَتْ عليَّ أكارِمٌ ؛ تَرَضَّيْتُ بالعِرضِ الكريمِ جَزاءها

ولكنَّ جُرْذانَ الثُّغورِ رَمَيْنَني ، فأكرَمْتُ نفسي أن تُريقَ دِماءها

إليكَ أبا مَروانَ ألْقَيْتُ رابياً بحاجَةِ نفسٍ ما حُرِبتُ خَزاءها[2]

هَزَزْتُكَ في نَصْري ضُحًى فكأنَّني هَزَزْتُ ، وقد جِئتُ الجبالَ ، حِراءها[3]

نَقَضْتُ عُرى عزمِ الزَّمانِ ، وإن عتَا ، بعَزْمَةِ نَفْسٍ لا أُرِيدُ بقاءها

فلمَّا انتهيتُ تَبَسَّمَ وقال : لَنِعْمَ ما تخلَّصتَ ! اذْهَبْ فقد أجَزْتُكَ .

---

١ أسرابها الدمى : رواية يتيمة الدهر : أسرابها الألى .

٢ أبو مروان : أي الوزير أبو مروان ابن الجزيري ، وكان بينه وبين ابن شهيد مساجلات شعرية . رابياً : زائداً مرتفعاً . حربت : سلبت ، للمجهول . خزاءها ، على مد المقصور : شدة حيائها .

٣ حراء : جبل بمكة .

صاحب أبي تمام

ثمَّ انصرَفْنا ، وركَضْنا حتى انتهَيْنا إلى شَجَرةٍ غَيْناء[1] يتفجّرُ من أصْلِها عيْنٌ كمُقلَةٍ حَوراء . فصاح زُهَير : يا عتّابُ بنَ حَبْناء ، حلَّ بك زُهير وصاحبُه ، فبعَمْرٍو والقَمرِ الطّالِع ، وبالرُّقعةِ المفكوكةِ الطّابِع[2] ، إلاَّ ما أرَيْتَنا وجْهَك ! فانفلَقَ ماء العيْن عن وجهِ فتًى كفِلْقةِ القمر ، ثمَّ اشتقَّ الهواءَ صاعداً إلينا من قَعْرِها حتى استَوى معنا . فقال : حيّاكَ اللهُ يا زهير ، وحيّا صاحِبَك ! فقلتُ : وما الذي أسكنكَ قَعْرَ هذه العَين يا عتّاب ؟ قال : حَيائي من التّحسُّنِ باسمِ الشِّعْرِ وأنا لا أُحسِنُه . فصِحتُ : ويلي منه ؛ كلامُ مُحْدَثٍ[3] وربِّ الكَعْبة ! واستنشَدَني فلم أُنْشِدْه إجلالاً له ، ثم أنشدتُه :

أبـكَيْتَ ، إذ ظَعَنَ الفَريقُ[4] ، فِراقَها

حتّى انتهَيتُ فيها إلى قولي :

---

١ الغيناء : الشجرة الخضراء .

٢ الطابع بفتح الباء وبكسرها : الخاتم يطبع به ، يشير إلى قول أبي تمام :

يا عمرو ، قل للقمر الطالع : اتسع الخرق على الراقع
يا طول فكري فيك من حامل لرقعة مفكوكة الطابع

٣ محدث : أي من الشعراء المحدثين ، والمراد بهم العباسيون الذين يميلون إلى تزويق الكلام وتمويهه .

٤ الفريق : الجماعة من الناس .

إنّي امْرُؤٌ لَعِبَ الزّمانُ بهِمّتي ،   وسُقيتُ من كأس الخُطوبِ دِهاقَها
وكبَوتُ طِرْفاً في العُلى ، فاستَضحكتْ   حُمُرُ الأنامِ ، فما تَريمُ نُهاقَها[1]
وإذا ارتَمَتْ نحوي المُنى لأنالَها ،   وقَفَ الزّمانُ لها هُنَاكَ فَعَاقَها
وإذا أبو يَحْيَى تأخّرُ نَفْسُهُ ،   فمتى أُؤمّلُ في الزّمان لَحاقَها ؟[2]

فلمّا انتَهَيتُ قال : أنشِدْني من رِثائك . فأنشَدتُه :

أعينَا امْرَأً نَزَحَتْ عَيْنُهُ ،   ولا تَعْجَبا مِنْ جُفُونٍ جِمادِ[3]
إذا القلبُ أحْرَقَهُ بَثُّهُ ،   فإنَّ المدامِعَ تِلْوُ الفُؤادِ
يَوَدُّ الفتى مَنْهَلاً خالياً ،   وسَعْدُ المَنيّةِ في كلِّ وادِ[4]
ويَصْرِفُ للكونِ ما في يديهِ ،   وما الكَونُ إلاّ نَذيرُ الفَسادِ[5]
لَقَدْ عَثَرَ الدّهرُ بالسّابقينَ ،   ولم يُعجِزِ الموتَ رَكْضُ الجَوادِ
لَعَمْرُكَ ما رَدَّ رَيْبَ الرّدى   أريبٌ ، ولا جاهِدٌ باجْتِهادِ
سِهامُ المَنايا تُصيبُ الفتى ،   ولَوْ ضَرَبُوا دُونَه بالسَّدادِ
أصبْنَ ، على بَطْشِهِمْ ، جُرْهُماً ،   وأصْمَيْنَ ، في دارِهِمْ ، قومَ عادِ

---

١ طرفاً : فرساً كريماً ، منصوب على الحال . ما تريم : أي ما تترك .

٢ نفسه : همته . ورواية يتيمة الدهر : تأخر سعيه . لحاقها : الضمير يعود إلى المنى ، في البيت السابق .

٣ نزحت : نفد ماؤها . جماد : جمع جمد بفتح فسكون ، بمعنى جامد ، سمي بالمصدر .

٤ في كل واد : إشارة إلى المثل السائر : بكل واد بنو سعد . قيل إن الأضبط بن قريع السعدي تحول عن قوم ، وانتقل في القبائل ، فلما لم يحمد جوارهم رجع إلى قومه ، وقال المثل .

٥ يصرفه : يقلبه ، ويجعله ينصرف ، أو هو بمعنى ينفقه .

وأقعَصْنَ كلباً على عِزِّهِ ، فما اعتَزَّ بالصَّافِناتِ الجِيادِ [1]

إلى أنِ انتَهَيتُ فيها إلى قولي :

ولكِنَّني خانَني مَعْشَري ، ورُدْتُ يَفاعاً وبِيلَ المَرادِ [2]
وهل ضرَبَ السَّيْفُ من غيرِ كفٍّ ؟ وهل ثَبتَ الرَّأسُ في غيرِ هادِ ؟ [3]

فقال : زِدْني من رِثائك وتحريضِك ؛ فأنشدتُه :

أفي كلِّ عامٍ مَصْرَعٌ لِعَظِيمِ ؟ أصابَ المَنايا حادِثي وقَديمي
هَوَى قَمَرَا قيسِ بنِ عَيْلانَ آنِفاً ، وأوحَشَ مِنْ كلبٍ مَكانُ زعِيمِ [4]
فكيفَ لِقائي الحادِثاتِ إذا سَطَتْ ، وقد فُلَّ سَيْفِي منهُمُ وعَزِيمي ؟
وكيف اهتِدائي في الخُطُوبِ إذا دجَت وقد فقَدَتْ عَيْنايَ ضَوءَ نُجُومِ ؟
مضى السَّلَفُ الوَضَّاحُ إلاَّ بَقِيَّةً ، كغُرَّةِ مُسْوَدِّ القَميصِ بَهيمِ [5]

---

١ أقعصن : قتلن . كلب : هو كلب بن وبرة أبو قبيلة يمانية مشهورة . الصافنات : صفة الخيول إذا قامت على ثلاث قوائم ، وطرف حافر الرابعة .

٢ ردت ، من راد : طلب الكلأ . اليفاع : التل . وبيل : وخيم المرعى . المراد : الموضع الذي يطلب فيه الكلأ .

٣ الهادي : العنق .

٤ قيس بن عيلان : صوابه قيس عيلان ، وهو أبو قبيلة مضرية مشهورة ، وعيلان اسم فرسه ، مضاف إليه ، واسم قيس الناس بن مضر ، وأخوه إلياس المعروف باسم خندف ، والمراد بالقمرين قيس وخندف .

٥ الغرة : ليلة استهلال القمر ، ومن الهلال طلعته . مسود القميص : أي الليل . البهيم : الأسود . هذه القصيدة قالها في رثاء أبي عبيدة حسان بن مالك بن أبي عبيدة ، وزير عبد الرحمن بن هشام أيام الفتنة .

ومنها :

رَمَيْتُ بها الآفاقَ عنّي غريبةً ، نتيجةَ خفّاقِ الضُّلُوعِ كَظِيمِ
لأُبدي إلى أهلِ الحجى مِن بَواطِني، وأدْلي بعُذرٍ في ظَواهِرِ لُومِ[1]
أنا السّيفُ لم تَتعَبْ به كَفُّ ضَاربٍ ، صَرومٌ إذا صادَفتْ كَفّاً صَرُومِ
سَعَيتُ بأحرارِ الرّجالِ ، فَخانَني رجالٌ ، ولمْ أنْجَدْ بِجِدٍّ عَظيمِ
وضَيّعَني الأمْلاكُ بَدءاً وعَودَةً ، فضِعتُ بِدارِ منهُمُ وحَرِيمِ

فقال : إن كُنتَ ولا بُدَّ قائِلاً ، فإذا دعتْكَ نفسكُ إلى القولِ فَلا تَكُدَّ قريحتَك ، فإذا أكْمَلْتَ فَجَمامُ ثلاثةٍ[2] لا أقَلَّ . ونَقّحْ بعدَ ذلك ، وتذكّرْ قوله[3] :

وجَشّمَنِي خَوفُ ابنِ عفّانَ رَدَّها، فَثَقّفْتُها حَولاً كَرِيتاً ومَرْبَعا[4]
وقَد كانَ في نَفسي عَلَيها زيادَةٌ ، فَلمْ أرَ إلاّ أنْ أُطيعَ وأسمَعا

وما أنتَ إلاّ مُحسِنٌ على إساءةِ زَمانِكَ . فقبّلتُ على رأسِه ، وغاصَ في العَبَر .

---

١ اللوم : مخفف اللؤم .
٢ فجمام ثلاثة : أي فراحة ثلاثة أيام .
٣ قوله : أي قول سويد بن كراع العكلي ، وهو شاعر أموي هجا بعض قومه ، فاستعدوا عليه سعيد بن عثمان بن عفان ، فطلبه ليضربه ويحبسه ، فهرب منه ولم يزل متوارياً حتى عفا عنه .
٤ ردها : الضمير لقصيدة الهجاء . حول كريت : سنة تامة . المربع : الموضع يقيمون فيه أيام الربيع ، والمراد هنا مدة الإقامة فيه . ورواية الأغاني : ورعيتها صيفاً جديداً ومربعا .

صاحب البحتري

ثم قالَ لي زُهَير : من تُريد بعده ؟ قلتُ : صاحبَ أبي نُوَاس ؛ قال : هو بدَيْرِ حنّة[1] منذُ أشهر ، قد غَلَبَت عليه الخَمر ، ودَيْرُ حنّة في ذلك الجَبل . وعَرَضه عليَّ ، فإذا بيننا وبينه فَراسِخ . فركضْنا ساعةً وجُزنا في ركضِنا بقَصرٍ عظيمٍ قُدَّامَه ناوَرْدٌ[2] يتطاردُ فيه فُرسان ، فقُلتُ : لمَنْ هذا القصرُ يا زُهَير ؟ قال : لطَوقِ بنِ مالك ؛ وأبُو الطَّبْعِ صاحبُ البُحتُرِيّ في ذلك النَّاوَرْد ، فهل لكَ في أنْ تَراه ؟ قلتُ : ألفُ أجَلْ ، إنّه لمن أساتيذي ، وقد كُنتُ أنسيتُه . فصاحَ : يا أبا الطَّبعِ ! فخرجَ إلَينا فَتًى على فَرَسٍ أشعل[3] ، وبيدِه قَناة ، فقال له زُهَير : إنّك مُؤتَمَنًا[4] ؛ فقال : لا ، صاحبُكَ أشمخُ مارِناً[5] من ذلك ، لولا أنّه ينقُصُه . قلتُ : أبا الطّبعِ على رِسلِك ، إنَّ الرّجالَ لا تُكالُ بالقُفزان[6] . أنشِدْنا من شِعرِك . فأنشد :

---

١ دير حنة : دير بظاهر الكوفة ، كان يزوره أبو نواس ، ويأوي إلى الحانات القريبة منه ، وقد ذكره غير مرة في خمرياته . وهو هنا في أرض الجن يأوي إليه شيطان شاعر الخمرة .

٢ ناورد : فارسي الأصل ، يراد به ميدان أو ملعب للخيل والبهلوان ، وربما أطلق على ضرب من المحاربة على الخيول وقهر الخصم ، ذكره دوزي في معجمه .

٣ الأشعل ، من الخيل : ما كان في ذنبه والناصية والقذال بياض .

٤ مؤتمنا : أي نائم بك .

٥ مارناً : أنفاً .

٦ القفزان : جمع القفيز ، وهو مكيال .

ما على الرَّكبِ من وُقوفِ الرِّكابِ[1]

حتّى أكملَها ، ثم قالَ : هاتِ إن كنتَ قلتَ شيئاً . فأنشدتُه :

هَذِهِ دارُ زَينَبٍ والرَّبابِ

حتّى انتهيتُ فيها إلى قَولي :

وارتكضنا حتّى مَضى اللّيلُ يَسعى، وأتى الصُّبحُ قاطِعَ الأسبابِ[2]
فكأنَّ النّجُومَ في اللّيلِ جَيشٌ دخلُوا لِلكُمُونِ في جَوفِ غابِ
وكأنَّ الصّباحَ قانِصُ طيرٍ قبَضَتْ كفُّهُ بِرِجْلِ غُرابِ
وفُتُوٍّ سَرَوْا وقَدْ عَكَفَ اللّيْـ ـلُ وأرخى مُغْدَوْدِنَ الأطنابِ[3]
وكأنَّ النّجُومَ لمّا هَدَتْهُم أشرقَتْ للعُيونِ من آدابِ
يتَقَرَّوْنَ جَوزَ كلِّ فَلاةٍ ، جُنْحَ ليلٍ ، جَوزاؤه من رِكابي[4]
عَنَّ ذِكري لمُدلِجيهِم ، فتاهوا مِن حديثي في عُرْضِ أمرٍ عُجابِ[5]
هِمّةٌ في السّماء تَسحبُ ذَيلاً ، من ذُيُولِ العُلى ، وَجَدٌّ كابِ

1 هذا مطلع قصيدة للبحتري ، وتمامه : في مغاني الصبى ورسم التصابي .

2 الأسباب : الحبال ، والمراد حبال التلاقي .

3 الفتو : جمع فتى . وأرخى : رواية يتيمة الدهر : وألقى . المغدودن : الناعم المتثني .

4 الجوز : الوسط . الجوزاء : برج في وسط السماء . ركابي : في الأصل ركاب ، والتصحيح عن يتيمة الدهر .

5 العرض : الجانب .

ولوَ انّ الدُّنيا كَرِيمةُ نَجْرٍ ، لم تَكُنْ طُعمَةً لفَرْسِ الكِلابِ[1]
جِيفَةٌ أنْتَنَتْ فطارَ إليها ، من بني دهرِها ، فِراخُ الذُّبابِ

ومنها[2] :

من شُهَيْدٍ في سِرِّها ، ثُمَّ مِن أشْـ جَعَ في السِّرِّ من لُبابِ اللُّبابِ[3]
خُطَبَاءُ الأنام ، إن عَنَّ خَطْبٌ ، وأعاريبُ في مُتُونِ عِرابِ[4]

حتى أكملتُها . فكأنَّما غَشَّى وجهَ أبي الطَّبعِ قِطعةٌ من الليل . وكرَّ راجعاً إلى ناوَرْدِهِ دون أن يُسلِّم . فصاح به زهير : أأجزْتَه ؟ قال : أجزْتُه ، لا بورِكَ فيك من زائر ، ولا في صاحبك أبي عامر !

صاحب أبي نواس

فضَرَب زُهير الأدهمَ بالسَّوط ، فسار بنا في قَنَنِه[5] ، وسِرنا حتى انتهَيْنا إلى أصل جبَلٍ دَير حَنَّة ، فشقَّ سَمعِي قَرْعُ النَّواقِيس ، فصِحْتُ : مِنْ مَنازِلِ أبي نواس ، ورَبِّ الكعبةِ العَلياء ! وسِرْنا نَجتابُ أدياراً وكنائسَ

---

١ النجر : الأصل . الفرس : الافتراس ، وكل قتل . ورواية اليتيمة : لبرص ، جمع أبرص .
٢ في الأصل : ومنها يفتخر .
٣ السر : الأصل ومحض النسب وأفضله .
٤ العراب : الخيول العربية الكريمة ، السالمة من الهجنة .
٥ القنن : سنن الطريق ، أي نهجه ، في الأصل : قننه ، وهو تصحيف .

وحانات ، حتّى انتهيّنا إلى ديرٍ عظيمٍ تَعبَقُ روائحُه ، وتَصُوكُ[1] نوافحُه . فوقف زهير ببابه وصاح : سلامٌ على أهل دير حَنَّةَ ! فقلتُ لزهير : أوَهل صِرنا بذات الأُكَيراح[2] ؟ قال : نعم . وأقبَلتْ نحونا الرُّهابين ، مُشدَّدةٌ بالزنانير ، قد قَبَضتْ على العَكاكيز ، بِيضَ الحواجِبِ واللِّحى ، إذا نظروا إلى المرء استحيا ، مُكثِرين للتَّسبيح ، عليهم هَدْيُ المسيح . فقالوا : أهلاً بكَ يا زهير من زائر ، وبصاحِبك أبي عامر ! ما بُغيَتُك ؟ قال : حُسَيْنُ الدَّنان . قالوا : إنّه لفي شُرْب الخمرة ، منذُ أيّام عشرة ، وما نُراكُما منتفِعَين به . فقال : وعلى ذلك[3] . ونزلْنا وجاوُوا بنا إلى بيتٍ قد اصطَفَّت دِنانُه ، وعكَفَتْ غِزْلانُه ، وفي فُرْجَتِه شيخٌ طويلُ الوجهِ والسَّبَلَة[4] ، قد افترشَ أضغاثَ زَهْر ، واتَّكأ على زِقِّ خَمْر ، وبيده طَرْجَهارةٌ[5] ، وحواليه صِبْيةٌ كأظْبٍ[6] تَعطُو إلى عَرارة[7] . فصاح به زهير : حيّاك اللهُ أبا الإحسان ! فجاوبَ بجوابٍ لا يُعقَلُ لغَلَبةِ الخمرِ عليه . فقال لي زهير : اقرَعْ أُذُنَ

---

١ تصوك : تعبق .

٢ ذات الأكيراح : هو دير حنة . الأكيراح : تصغير أكراح ، مفردها كرح بالكسر ، وهي لفظة سريانية ، معناها الكوخ الصغير يكون حول الدير ، ويسكنه الراهب الذي لا تلاية له ، واللفظة وردت في شعر أبي نواس .

٣ وعلى ذلك : أي وعلى ذلك نريده ، أو ما أشبه .

٤ السبلة : ما على الشارب من شعر .

٥ الطرجهارة : شبه كأس يشرب فيه .

٦ أظب : جمع ظبي .

٧ تعطو : ترفع رؤوسها إلى الشجر لتتناول منها . العرارة : واحدة العرار ، وهو نبت ناعم أصفر طيب الريح .

نشوتِه بإحدى خمريّاتِك ، فإنّه ربما تنبّه لبعض ذلك . فصحتُ أنشدُ من كلمةٍ لي طويلة :

ولرُبَّ حانٍ قد أدرتُ بديرِهِ ... خمرَ الصِّبا مُزِجتْ بصفوِ خمورِهِ[1]
في فتيةٍ جعلُوا الزِّقاقَ تِكاءهُم ، ... متصاغرينَ تخشُّعاً لكبيرِهِ[2]
والَى عليَّ بطرْفِه وبكفِّه ، ... فأمالَ مِنْ رأسي لِعَبٍّ كبيرِهِ[3]
وترنّمَ النّاقُوسُ عند صلاتِهِمْ ، ... ففتحتُ من عيْني لِرجعِ هديرِهِ
يُهْدي إلينا الرّاحَ كلُّ مُعَصفَرٍ ، ... كالخِشْفِ خفّرَهُ التِماحُ خفيرِهِ[4]

فصاح من حبائل نَشْوته : أالأشجعيَّ ؟ قلتُ : أنا ذاك ! فاستدعى ماء قَراحاً ، فشَرِب منه وغسّل وجهه ، فأفاقَ واعتذر إليَّ من حاله . فأدركتْني مَهابتُه ، وأخذتُ في إجلاله لمكانه من العِلْم والشِّعر . فقال لي : أنشِدْ ، أو حتّى أُنشِدَك ؟ فقلت : إنَّ ذلك لأشدُّ لتأنيسي ، على أنه ما بعدك لمُحسنٍ إحسانٌ . فأنشد :

يا ديرَ حَنّةَ من ذاتِ الأُكَيْراحِ ، ... من يَصْحُ عنكَ فإنّي لستُ بالصّاحي[5]

---

١ حان : في الأصل : خان .

٢ التكاء : أراد به المتكأ أي موضع اتكائهم ، وهو غير وارد . كبيره : كبير الدير ، أي عظيمه ورئيسه .

٣ كبيره : أي القدح الكبير .

٤ كل معصفر : أي كل ذي معصفر ، أي ثوب مصبوغ بالعصفر ، وهو نبت يصبغ به صبغ أصفر . خفره : أي جعله يحمر حياء . الخفير : الحامي والمحافظ .

٥ هذه الأبيات لأبي نواس في وصف رهبان دير حنة .

يَعتادُهُ كلُّ مَحْفُوفٍ مَفارِقُهُ ، منَ الدِّهانِ ، عَليهِ سَحْقُ أمساحِ[1]
لا يَدلِفُونَ إلى ماءٍ بآنيةٍ ، إلاَّ اغترافاً منَ الغُدرانِ بالرَّاحِ

فكدتُ واللهِ أخرُجُ من جِلدي طَرَباً . ثم أنشَد :

طَرَحتُم من التَّرحالِ أمراً فَغمَّنا[2]

وأنشَدَ أيضاً :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزدادُ طيبَ نَسيمٍ ، على طُولِ ما أقوَتْ ، وحُسنَ رُسُومِ[3]
تَجافى البِلى عَنهُنَّ حتّى كأنّما لَبِسْنَ ، من الإقواءِ ، ثَوبَ نَعيمِ[4]

واستمرَّ فيها حتى أكمَلَها . ثم قالَ لي : أنشِد . فقُلتُ : وهَل أبقَيتَ للإنشاد موضِعاً ؟ قال : لا بُدَّ لكَ ، وأوعِثْ بي ولا تُنجِدْ[5] . فأنشدتُه :

أصَباحٌ شِيمَ أمْ بَرقٌ بَدا ، أم سَنا المَحبوبِ أوْرى أزْنُدا[6]

---

١ يعتاده : ينتابه . المحفوف : البعيد العهد بالدهان . الدهان : الطيب . السحق : الثوب البالي . الأمساح : جمع مسح بالكسر ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان .
٢ أمراً : في ديوان أبي نواس : ذكراً . وتمام البيت : فلو قد شخصتم صبح الموت بعضنا .
٣ طول : في الأصل طيب ، والتصحيح عن الديوان . أقوت : أقفرت . حسن رسوم ، مكانها في الديوان موضع طيب نسيم ، وهذه مكانها موضع حسن رسوم .
٤ الإقواء : خلو الدار ، وقوله من الإقواء : رواية الديوان : على الإقواء .
٥ أوعث : أي سر في المكان السهل . لا تنجد : لا تسر في النجد ، أي المكان المرتفع .
٦ أصباح : في الأصل : أصفيح ، والتصحيح عن مطمح الأنفس للفتح بن خاقان . شيم : من شام ، أي نظر .

هَبَّ مِنْ مرقَدِه مُنْكَسِراً ، مُسْبِلاً للكُمِّ ، مُرْخٍ للرِّدا
يَمْسَحُ النَّعسةَ مِنْ عَيْنَيْ رَشاً ، صائدٍ في كلِّ يَومٍ أسَدا
قُلتُ : هَبْ لي يا حَبيبي قُبْلَةً ، تَشْفِ مِنْ عمِّكَ تَبريحَ الصَّدى[1]
فانثَنَى يَهتزُّ مِنْ مَنكِبِهِ ، قائلاً : لا ! ثُمَّ أعطاني اليَدا
كُلَّما كَلَّمَني قَبَّلتُهُ ، فَهْوَ إمّا قالَ قَولاً رَدَّدا
كادَ أنْ يَرجِعَ، مِنْ لَثْمي لَهُ وارتِشافي الثَّغرَ مِنهُ ، أدرَدا[2]
قالَ لي يَلعَبُ : خُذْ لي طائراً ، فتَراني الدَّهرَ أجري بالكُدى[3]
وإذا استَنجزتُ يَوماً وَعْدَهُ ، قالَ لي يَمطُلُ : ذَكِّرني غَدا
شَرِبَتْ أعطافُهُ خَمْرَ الصِّبا ، وسَقاهُ الحُسْنُ حتّى عَرْبَدا
وإذا بِتُّ بِه ، في رَوضَةٍ ، أغيَداً يَعرُو نَباتاً أغيَدا[4]
قامَ في اللَّيلِ بِجِيدٍ أتلَعٍ ، يَنفُضُ اللِّمّةَ مِنْ دَمْعِ النَّدى
رَشَأٌ ، بَلْ غادَةٌ مَمكُورَةٌ عَمَّمَتْ صُبْحاً بِلَيلٍ أسوَدا[5]
أحَحَتْ مِنْ عَضِّي في نَهْدِها، ثُمَّ عَضَّتْ حُرَّ وَجْهي عَمَدا[6]

---

١ من عمك : في الأصل : من غمك ، والتصحيح عن مطمح الأنفس . الصدى : العطش .

٢ الأدرد : من ذهبت أسنانه .

٣ الكدى : جمع الكدية ، وهي الأرض الصلبة الغليظة . والجري بالكدى يراد به الظفر والنجاح .

٤ يعرو : يقصد . في مطمح الأنفس : يغرو ، أي يقصد ويتتبع . الأغيد : من مالت عنقه ، ولانت أعطافه ، ومن النبات الناعم المتثني .

٥ الممكورة : المدمجة الخلق والمستديرة الساقين .

٦ أححت : أي قالت : أح ، حكاية صوت .

فأنا المَجرُوحُ مِنْ عَضَّتِها ، لا شَفَاني اللهُ مِنها أبَداً !

فلمّا انتهيتُ قال : لله أنت ! وإنْ كان طبعُك مختَرَعاً منك . ثمَّ قالَ لي : أنشِدْني من رِثائك شيئاً . فأنشدتُه من قولي في بُنَيَّةٍ صغيرة :

أيّها المُعتَدُّ في أهْلِ النُّهَى ، لا تَذُبْ ، إثْرَ فَقيدٍ ، وَلَهَا

حتّى انتهيتُ إلى قولي :

وإذا الأُسْدُ حَمَتْ أغيالَها ، لمْ يَضُرَّ الخِيسَ صَرْعاتُ المَهَا[1]
وغَريبٌ يا ابْنَ أقْمارِ العُلا ، أن يُراعَ البَدْرُ مِنْ فَقْدِ السُّهَا

فلمّا انتهيتُ قال لي : أنشِدْني مِن رِثائِك أشَدَّ مِنْ هذا وأفصَح . فأنشَدْتُه مِنْ رِثائي في ابنِ ذَكْوانَ[2] . ثمَّ قال : أنشِدْني جَحْدَرِيَّتَكَ[3] مِنَ السّجن ؛ فأنشَدته :

---

١ الخيس : عرين الأسد ، كالغيل .

٢ هو القاضي ابن ذكوان رثاه ابن شهيد بقصيدة أولها :

ظننا الذي نادى محقاً بموته ، لعظم الذي أنحى من الرزء ، كاذبا

٣ جحدريتك : نسبة إلى جحدر ، وهو رجل من بني جشم بن بكر كان يخيف السبيل بأرض اليمن ، فبلغ خبره الحجاج ، فشدد في طلبه حتى ظفر به ، فأمر بحبسه ، فحبس . فنظم في سجنه قصيدة جميلة يرثي بها نفسه ، ويحن إلى بلاده ، ويستعطف الحجاج بقوله :

أحاذر صولة الحجاج ظلماً ، وما الحجاج ظلام لجان

فبلغ شعره الحجاج ، فأحضره بين يديه ، وقال : أيما أحب إليك ، أن أقتلك بالسيف ، أو ألقيك للسباع ؟ فقال : أعطني سيفاً ، وألقني للسباع . فأعطاه سيفاً ، وألقاه إلى أسد مجوع ، فزأر الأسد ، وتلقاه جحدر بالسيف ففلق هامته . فأعجب به الحجاج ، وأكرمه وجعله من أصحابه .

قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الهَوانِ بَعِيدُ[1]

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي :

فإنْ طالَ ذِكْري بالمُجُونِ فإنّني شَقِيٌّ بِمَنْظُومِ الكلامِ سَعِيدُ
وهل كنتُ في العُشّاقِ أوّلَ عاشِقٍ ، هَوَتْ بِحِجاهُ أعيُنٌ وخُدُودُ ؟[2]
فمَنْ مُبْلِغُ الفِتْيانِ أنّيَ بَعْدَهُمْ مُقِيمٌ بدارِ الظّالِمِينَ طَرِيدُ[3]
ولستُ بذي قَيْدٍ يَرِقُّ ، وإنّما على اللحظِ من سُخْطِ الإمامِ قُيُودُ[4]

فبكى لها طويلاً . ثم قال : أنشِدْني قطعةً من مجونك ، فقد بَعُدَ عَهدي بمثلِك . فأنشدتُهُ[5] :

وناظِرةٍ تحتَ طَيِّ القِناعِ ، دعاها إلى اللهِ والخيرِ داعِ
سَعَتْ بِابنِها تَبْتَغِي منزِلاً ، لِوَصْلِ التَّبَتُّلِ والانقِطاعِ
فجاءتْ تَهادَى كَمِثْلِ الرَّؤُومِ ، تُراعِي غَزالاً بأعلى يَفاعِ[6]

---

١ تمام البيت عن مطمح الأنفس : يجود ، ويشكو حزنه ، فيجيد .

٢ أول عاشق : في مطمح الأنفس : أول عاقل .

٣ طريد : في المطمح : وحيد .

٤ يرق : في المطمح : يرث .

٥ قال الفتح بن خاقان في المطمح ما ملخصه : قعد الوزير أبو عامر بن شهيد بباب الصومعة من الجامع في لمة من الإخوان ، فمرت جارية من أعيان أهل قرطبة ، معها من جواريها من يسترها ويواريها ، وهي ترتاد موضعاً لمناجاة ربها ، متنقبة خائفة ممن يرقبها ، وأمامها طفل لها ، فلما وقعت عينها على أبي عامر ، ولت سريعة خيفة أن يشبب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلما نظرها قال هذه الأبيات ، ففضحها بها وشهرها .

٦ الرؤوم : العاطفة على ولدها ، والمراد بها الظبية . بأعلى يفاع : في نفح الطيب : بروض البقاع .

أتَتْنا تَبَخْتَرُ في مَشْيِها ، فحلّتْ بِوادٍ كثيرِ السِّباعِ
وريعَتْ حِذاراً على طِفْلِها ، فنادَيْتُ : يا هذِهِ لا تُراعي !
فوَلّتْ وللمِسْكِ مِن ذَيْلِها ، على الأرضِ ، خطٌّ كظَهْرِ الشُّجاعِ [1]

فلما سمع هذا البيتَ قامَ يرقُص به ويردِّدهُ ، ثم أفاق ، ثم قال : هذا واللهِ شيء لم نُلهَمْه نحن . ثم استَدناني فدَنَوتُ منه فقبَّلَ بين عَينَيَّ ، وقال : اذهَبْ فإنّك مُجاز . فانصرفنا عنه وانحدرنا مِنَ الجبل .

صاحب أبي الطيب

فقالَ لي زُهَير : ومَن تُريدُ بعدُ ؟ قلتُ له : خاتِمةَ القَومِ صاحِبَ أبي الطيِّب ؛ فقال : اشْدُدْ لهُ حَيازيمَك [2] ، وعطِّرْ له نَسيمَك ، وانثُر عليْهِ نُجومَك . وأمال عِنانَ الأدْهَم إلى طريقٍ ، فجعلَ يَرْكُضُ بنا ، وزُهَيرٌ يتأمّلُ آثارَ فرَسٍ لَمَحناها هناك . فقلتُ له : ما تتبُّعُكَ لهذِهِ الآثار ؟ قالَ : هي آثارُ فرسِ حارِثَةَ بنِ المُغَلِّس صاحِبِ أبي الطيِّب ، وهو صاحبُ قَنَص . فلم يزل يتقرّاها حتى دفَعْنا [3] إلى فارسٍ على فرسٍ بَيضاء كأنّه قَضيبٌ على

---

١ الشجاع : ذكر الحية .

٢ الحيازيم : جمع الحيزوم ، وهو ما استدار بالظهر والبطن ، يقال : شد للأمر حيازيمه ، أي استعد له وتهيأ .

٣ دفعنا : أي دفعنا فرسنا ، اصطلحوا في هذا الفعل على حذف المفعول .

كَئيب ، وبيَدِه قَنَاةٌ قد أسندَها إلى عُنُقِه ، وعلى رأسِه عِمامةٌ حَمراء قد أرخى لَها عَذَبةً[1] صفراء . فحيَّاه زُهَير ، فأحسَنَ الرَّدَّ ناظراً من مقلةٍ شَوساء[2] ، قد مُلِئت تِيهاً وعُجباً . فعرَّفَه زُهيرٌ قَصدي ، وألقى إليه رَغبَتي . فقال : بلَغَني أنَّه يتَناوَل[3] ؛ قلتُ : للضَّرورةِ الدافِعة ، وإلاَّ فالقَريحةُ غيرُ صادِعَة[4] ، والشَّفْرة غيرُ قاطعة . قال : فأنشِدني ؛ وأكبَرتُه أن أستَنشِدَه ، فأنشدتُه قصيدَتي التي أوَّلُها :

أبَرقٌ بَدا أمْ لَمعُ أبيَضَ قاصِلِ[5]

حتى انتهَيتُ فيها إلى قَولي :

تَرَدَّدَ فيها البَرقُ حتَّى حَسِبتُهُ ... يُشيرُ إلى نَجْمِ الرُّبى بالأناملِ
رُبًى نَسَجَتْ أيْدي الغَمامِ لِلُبسِها ... غَلائلَ صُفْراً ، فَوقَ بِيضِ غَلائلِ
سَهِرتُ بِها أرعى النُّجُومَ وأنجُماً ... طَوالِعَ للرَّاعِينَ ، غَيرَ أوافِلِ[6]
وقَد فَغَرَتْ فاها بها كلُّ زهرَةٍ ، ... إلى كلِّ ضَرعٍ للغَمامَةِ حافِلِ
ومَرّتْ جيُوشُ المُزْنِ رَهواً ، كأنّها ... عَساكِرُ زَنْجٍ مُذهَباتُ المَناصِلِ[7]

---

١ العذبة : طرف العمامة يسيل من خلفها .
٢ مقلة شوساء : أي عين ناظرة بمؤخرها تكبراً ، أو تغيظاً .
٣ يتناول : أي يأخذ عن غيره ، أو يأخذ الأشياء القريبة المنال .
٤ قريحة صادعة : أي قاطعة أو مشرقة نيرة .
٥ قاصل : قاطع ، وتمام البيت عن اليتيمة : ورجع شدا ، أم رجع أشقر صاهل .
٦ وأنجماً : أي أنجم زهر الربى ، من أصفر وأبيض .
٧ رهواً : أي متتابعة .

وحَلّقَتِ الخضراءُ في غُرِّ شُهْبِها ، كَلُجّةِ بَحرٍ كُلِّلَتْ بالبَعالِلِ[1]

تَخالُ بها زُهْرَ الكَواكِبِ نَرجِساً ، عَلَى شَطِّ وادٍ للمَجَرّةِ سائِلِ

وتَلْمَحُ مِنْ جَوزائِها في غُرُوبِها تَساقُطَ عَرشٍ واهِنِ الدَّعْمِ مائلِ

وتَحسَبُ صَقراً واقِعاً دَبَرانَها ، بِعُشِّ الثُّرَيّا فَوقَ حُمرِ الحَواصِلِ[2]

وبَدرَ الدُّجى فيها غَديراً ، وحولَهُ نُجُومٌ كَطَلْعاتِ الحَمامِ النَّواهِلِ

كأنَّ الدُّجى هَمّي ، ودَمعي نُجومُهُ ، تَحَدَّرُ إشفاقاً لِدَهْرِ الأراذِلِ[3]

هَوَتْ أنجُمُ العَلْياء إلاّ أقلَّها ، وغِبْنَ بما يَحظى بهِ كلُّ عاقِلِ

وأصبَحْتُ في خَلْفٍ إذا ما لَمَحْتُهُم تبَيّنْتُ أنَّ الجهلَ إحدى الفضائلِ[4]

وما طابَ في هذي البَريّةِ آخِرٌ ، إذا هو لم يُنْجِدْ بطيبِ الأوائلِ

أرى حُمُراً فوقَ الصَّواهِلِ جَمّةً ، فأبكي بعَيْني ذُلَّ تِلكَ الصَّواهِلِ[5]

ورُبّتَ كُتّابٍ إذا قيلَ : زَوِّرُوا ، بَكَتْ مِنْ تأنّيهِمْ صُدُورُ الرَّسائلِ[6]

وناقِلِ فِقْهٍ لم يَرَ اللهَ قلبُهُ ، يَظُنُّ بأنَّ الدِّينَ حِفْظُ المَسائلِ

وحامِلِ رُمْحٍ راحَ ، فوقَ مَضائِهِ ، بهِ كاعِباً في الحَيِّ ذاتَ مَغازِلِ[7]

---

١ الخضراء : السماء . البعالل : جمع بعلول ، وهو السحاب الأبيض ، أو القطعة منه .

٢ الدبران : منزل للقمر ، مشتمل على خمسة كواكب في برج الثور . الحواصل : جمع حوصلة ، وهي من الطائر بمنزلة المعدة للإنسان ، وفيها مراعاة النظير لعش الثريا .

٣ إشفاقاً : خوفاً وشفقة .

٤ الخلف بالتسكين : بمعنى الخلف بالتحريك ، ولكنها تختص بخلف السوء .

٥ حمراً : جمع حمار ، والمراد فرسان كالحمر .

٦ زوروا : يقال زور الحديث : ثقفه وأزال زوره أي اعوجاجه ، والشيء قومه وحسنه

٧ الكاعب : الجارية نتأ نهدها . والمراد أن حامل الرمح يشبه جارية تحمل مغزلا .

حُبُوا بالمُنى دُوني، وغُودِرْتُ دونهم أرُودُ الأماني في رياضِ الأباطيلِ
وما هي إلاّ همّةٌ أشْجَعيّةٌ ، ونَفْسٌ أبتْ لي من طِلابِ الرَّذائِلِ
وفَهم لو البِرْجيسُ جِئتُ بجَدّهِ ، إذاً لتَلَقّاني بنَحْسِ المُقاتِلِ[1]
ولَمّا طَما بحرُ البيَانِ بفِكرتي ، وأغرَقَ قَرْنَ الشمسِ بعضُ جداولي
رَحَلْتُ إلى خيرِ الورى كلَّ حُرَّةٍ مِن المدحِ ، لم تَحْمِلْ بِرَعْيِ الحمائلِ[2]
وكِدتُ لِفَضْلِ القولِ أبلُغُ ساكِتاً ، وإنْ ساء حُسّادي مدى كلِّ قائلِ

فلمّا انتهَيتُ قال : أنشدْني أشَدَّ من هذا . فأنشدتُه قصيدتي :

هاتيكَ دارُهُمُ فقِفْ بِمَعانِها[3]

فلمّا انتهَيتُ ، قال لزهير : إن امتَدَّ به طَلَقُ العُمُرُ[4] ، فلا بُدَّ أن ينفثَ بدُرَر ، وما أراه إلاّ سيُحتَضَر ، بين قريحةٍ كالجمْر ، وهِمّةٍ تَضَعُ أخْمَصَه على مَفرِقِ البَدْر . فقلت : هلاّ وضَعْتَه على صَلْعَةِ النَّسر[5] ! فاستضحكَ إليَّ وقال : اذهب فقد أجزتُك بهذه النُّكتَة . فقبّلتُ على رأسه وانصرَفنا .

---

١ البرجيس : المشتري ، وهو كوكب سعد . جده : حظه . المقاتل : أراد به المريخ ، وهو كوكب الحدة والحرب .

٢ رعي الحمائل : أراد به التكسب بالمدح .

٣ معانها : منزلها . وتمام البيت : تجد الدموع تجد في هملانها .

٤ الطلق : الغاية ، والحبل المفتول ، وكلاهما صالح للمعنى .

٥ النسر : الطائر المعروف ، وكوكبان ، أحدهما النسر الواقع والآخر النسر الطائر ، فكلامه فيه تورية ، وفيه مجاز أيضاً ، فقوله صلعة النسر ، أي نسر الشعراء ، ويريد به صاحب المتنبي .

الفصل الثاني

توابع الكتاب

صاحبا الجاحظ وعبد الحميد

فقال لي زُهير : مَن تريد بعدَه ؟ فقلت : مِلْ بي إلى الخُطباء ، فقد قضَيتُ وَطَراً من الشعراء . فركَضنا حيناً طاعِنين في مَطلَع الشمس ، ولقينا فارساً أسرَّ إلى زُهير ، وانجزعَ عنّا[1] ، فقال لي زُهير : جُمِعتْ لكَ خُطباء الجِنِّ بمَرْجِ دُهْمان ، وبيننا وبينهم فرسخان ، فقد كُفِيتَ العَناء إليهمْ على انفِرادِهم . قلت : لمَ ذاك ؟ قال : للفَرْقِ بين كلامَين اختلفَ فيه فِتْيانُ الجِنّ .

وانتهيْنا إلى المَرْج فإذا بنادٍ عظيم ، قد جمَع كلَّ زعيم ، فصاح زُهير : السلامُ على فُرسانِ الكلام . فردُّوا وأشاروا بالنُّزُول . فأفرَجوا حتى صِرنا مركزَ هالةِ مجلِسهم ، والكلُّ منهم ناظرٌ إلى شيخٍ أصلع ، جاحظِ العينِ اليُمنى ، على رأسِه قَلَنْسُوَةٌ بيضاء طويلة . فقلتُ سِرّاً لزهير : مَنْ ذلك ؟ قال : عُتْبةُ

---

١ انجزع عنا : أي انقطع عنا .

ابن أرقَم صاحبُ الجاحِظ ، وكُنْيتُه أبو عُيَيْنة . قلتُ : بأبي هو ! ليس رغبتي سِواه ، وغيرَ صاحبِ عبدِ الحميد . فقال لي : إنه ذلك الشيخُ الذي إلى جنبه . وعرّفه صَغْوي إليه[1] وقولي فيه . فاستدناني وأخذ في الكلام معي ، فصمتَ أهلُ المجلِس ، فقال : إنك لخطيب ، وحائكٌ للكلام مُجيد ، لولا أنّك مُغْرًى بالسّجع ، فكلامُك نظمٌ لا نثر .

فقلتُ في نفسي : قرعَكَ ، باللهِ ، بقارعتِه ، وجاءك بمُماثَلتِه[2] . ثم قلت له : ليسَ هذا ، أعزّك الله ، منّي جَهلاً بأمرِ السّجع ، وما في المماثَلة والمقابَلة[3] من فَضْل ، ولكنّي عدِمتُ ببلَدي فُرْسانَ الكلام ، ودُهيتُ بغباوةِ أهل الزمان ، وبالحَرَا[4] أن أحرّكَهم بالازدواج . ولو فرَشتُ للكلامِ فيهم طَولقاً[5] ، وتحركت لهم حركة مَشْوُلِم[6] ، لكان أرفعَ لي عندَهم ، وأولجَ في نفوسِهم .

---

١ صغوي إليه : ميلي إليه .

٢ المماثلة : هي أن تكون ألفاظ الفواصل والقرائن في الكلام المنثور متفقة في الوزن لا في التقفية نحو : وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم . أو قول الجاحظ : من مدحه بالخير والشر ، وبالحمد والذم ، حتى ذكر في القرآن مرة بالحمد ، ومرة بالذم .

٣ المقابلة : هي أن يؤتى بمتعدد من المتوافقات ، ثم يؤتى بما يقابله من الأضداد على الترتيب ، مثل قول الشاعر :

اذكى وأوقد للعداوة والقرى   نارين : نار وغى،ونار زناد

٤ بالحرا : يقال : بالحرا أن يكون ذلك ، أي بالخليق .

٥ الطولق : نبات .

٦ مشولم : لعله مشولين كسوقين ، أي فتيان ، وأحده مشول كمقعد ، كما في معجم دوزي ، وهو اصطلاح مغربي ، أو لعله شولم، إشارة إلى الرقية التي خدع الغبي بها اللصوص في كليلة ودمنة .

فقال : أهذا على تلك المناظر ، وكِبَرِ تلك المَحابر ، وكمال تلك الطيالِس ؟ قلتُ : نعم ، إنَّها لِحاء الشجر[1] ، وليس ثَمَّ ثَمَرٌ ولا عَبَق . قال لي : صَدقتَ ، إني أراك قد ماثلْتَ[2] معي . قلت : كما سمعت . قال : فكيف كلامهُم بينَهم ؟ قلت : ليس لسيبويه فيه عمَل ، ولا للفَراهيدي[3] إليه طريق ، ولا للبيَانِ عليه سِمَة . إنَّما هيَ لُكنةٌ أعجَميّةٌ يُؤدُّون بها المعانيَ تأديةَ المَجوسِ والنَّبَط . فصاحَ : إنّا لله ، ذهبت العربُ وكلامُها ! ارمهِمْ يا هذا بسَجع الكُهّان ، فعَسى أنْ ينفعَك عندَهم ، ويُطيرَ لك ذِكْراً فيهم . وما أُراك ، مع ذلك ، إلاَّ ثقيلَ الوطْأةِ عليهم ، كَرِيهَ المَجيءِ إليهم .

فقال الشيخ الذي إلى جانبه ، وقد علمتُ أنّه صاحبُ عبد الحميد ، ونفسي مرتقِبةٌ إلى ما يكون منه : لا يَغُرَّنْكَ منه ، أبا عُيَيْنةَ ، ما تكلَّف لك من المُماثلة ، إنَّ السَّجعَ لَطبْعُه ، وإنَّ ما أسمَعَك كُلْفة . ولو امتَدَّ به طَلَقُ الكلام ، وجرت أفراسُه في مَيْدان البَيان ، لصلّى كَودَنُه[4] وكَلَّ بِرْذَوْنُه . وما أُراهُ إلاَّ من اللُّكْنِ الذين ذَكَر ، وإلاَّ فما للفصاحةِ لا تَهدِر ، ولا للأعرابيّةِ لا تُومِض ؟

فقلت في نفسي : طبعُ عبدِ الحميد ومساقُه ، وربِّ الكعبة ! فقلت له : لقد عجِلْتَ ، أبا هُبَيرة ، — وقد كان زهيرٌ عرَّفني بكُنْيَتِه — إنَّ قوسَكَ

---

١ اللحاء : القشر .

٢ ماثلت : أتيت بالمماثلة .

٣ الفراهيدي : أي الخليل .

٤ صلى : أتى الفرس في الرهان بعد السابق . الكودن : الفرس الهجين .

لنَبْعٍ[1] ، وإنَّ ماءَ سَهْمِكَ لَسُمٌ ، أحِماراً رميتَ أم إنساناً ، وقَعْقَعةً طلبْتَ أم بَياناً ؟ وأبيك ، إنَّ البيانَ لَصَعْبٌ ، وإنّكَ منه لفي عباءةٍ تتكشَّفُ عنها أسْتاهُ مَعانيك ، تكشُّفَ اسْتِ العَنْزِ عن ذَنَبِها . الزمانُ دِفءٌ لا قُرٌّ ، والكلامُ عراقيٌّ لا شاميٌّ[2] . إني لأرى من دَمِ اليَرْبُوعِ[3] بكَفَّيْكَ ، والمحُّ من كُشَى[4] الضَّبِّ على ماضِغَيْكَ . فتبسَّمَ إليَّ وقال : أهكذا أنت يا أُطَيْلِسُ[5] ، تركَبُ لكلٍّ نهْجَه ، وتَعِجُّ إليه[6] عَجَّه ؟ فقلتُ : الذِّئبُ أطلَسُ ، وإنَّ التَّيْسَ ما عَلِمْتَ !

فصاح به أبو عُيَيْنَةَ : لا تعرِضْ له ، وبالحَرا أن تَخلُصَ منه . فقلت : الحمدُ للهِ خالقِ الأنامِ في بطونِ الأنعامِ[7] ! فقال : إنّها كافيةٌ لو كان له حِجْرٌ[8] . فبَسَطاني وسألاني أن أقرأ عليهما من رسائلي ، فقرأتُ رسالتي في صِفةِ البَرْدِ والنارِ والحطَبِ فاستحسناها .

---

١ النبع : شجر صلب تصنع منه القسي .

٢ عراقي لا شامي : تعريض بعبد الحميد لأنه شامي والجاحظ عراقي .

٣ اليربوع : نوع من الفأر طويل الرجلين ، قصير اليدين ، وله ذنب كذنب الجرذ يرفعه صعداً ، في طرفه شبه النوارة ، ولونه كلون الغزال ، يصطاده الأعراب ويأكلونه .

٤ الكشى : جمع الكشية بالضم ، شحمة بطن الضب أو أصل ذنبه ، يأكلها الأعراب ، ومنه قولهم: أطعم أخاك كشية الضب ، وهو حث على المؤاساة ، وقيل بل هزء به . والمراد بذلك أنه يعير عبد الحميد ببداوة تعبيره لأنه شامي وليس كالجاحظ العراقي حضري التعبير .

٥ الأطيلس : تصغير الأطلس ، وهو الذئب الأمعط في لونه غبرة إلى سواد ، والرجل إذا رمي بقبيح ، والسارق .

٦ عج إليه : صاح ورفع صوته ، والمراد بذلك أنه يسلك طريقه ، ويجري على أسلوبه .

٧ الأنعام : الإبل .

٨ الحجر : العقل .

رسالة الحلواء *

ومن رسالتي في الحَلواء حيث أقول :

خرجتُ في لُمّةٍ[1] من الأصحاب ، وثُبَةٍ[2] من الأتراب ، فيهم فقيهٌ ذو لَقْم[3] ، ولم أُعرِّفْ به ، وغَريم[4] بطنٍ ، ولم أشعُرْ له[5] ، رأى الحَلوى فاستخفّه الشَّرَه ، واضطرّب به الوَلَه ، فدار في ثيابه ، وأسالَ من لُعابه ، حتّى وقف بالأكداس[6] وخالطَ غَمارَ النّاس[7] ، ونظر إلى الفالُوذَج[8] فقال : بأبي هذا اللَّمْص[9] ، انظُروه كأنّه الفَصّ ؛ مُجاجَةُ الزنابير[10] ، أُجريَتْ على شوابير[11] ، وخالَطها لُبابُ الحَبّة ؛ فجاءتْ أعذبَ من ريق[12] الأحِبّة .

* تختلف رواية الذخيرة لرسالة الحلواء عن رواية يتيمة الدهر بعض الاختلاف .

١ اللمة بالضم : الصاحب أو الأصحاب في السفر ، والمؤنس ، للواحد والجمع .

٢ الثبة : الجماعة .

٣ اللقم : سرعة الأكل .

٤ الغريم : صاحب الدين يطالب به مديونه ، والمديون الذي يطالبه صاحب الدين .

٥ شعر له : فطن له ، على التضمين .

٦ الأكداس : أي أنواع الطعام .

٧ غمار الناس : لفيفهم وجمعهم المتكاثف .

٨ الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل .

٩ اللمص : الفالوذج .

١٠ مجاجة الزنابير : أي ريق النحل .

١١ شوابير : لم نجد له ذكراً في ما بين أيدينا من المعجمات ، إلا معجم دوزي ويظهر أن المراد به قطع لها شكل الزاوية ، كتقطيع الفالوذج ، وغيره من الحلواء .

١٢ ريق : في الأصل ألسنة ، والتصحيح عن يتيمة الدهر .

ورأى الخَبيص[١] فقال : بأبي هذا الغالي الرَّخيص ، هذا جليدُ سماء الرَّحمة ، تَمَخَّضَتْ به فأبرزتْ منه زُبْدَ النِّعْمة ، يُجَرِّحُ باللَّحْظ ، ويذوبُ من اللَّفْظ . ثم ابيضَّ ، قالوا بماء البَيْض[٢] البضّ ، قال غضٌّ مِن غَضّ ، ما أطيبَ خَلْوةَ الحبيب ، لولا حضْرةُ الرَّقيب !

ولمحَ القُبَيْطاء[٣] ، فصاح : بأبي نُقْرةُ[٤] الفضّة البيضاء ، لا تَرُدُّ عنِ العَضَّة . أبِنارٍ طُبِخَتْ أم بِنُور ؟ فإني أراها كقِطَعِ البَلُّور ؛ وبلوزٍ عُجِنتْ أم بِجَوز ؟ فإني أراها عينَ عَجينِ الموز . ومشى إليها وقد عدّل صاحبُها أرطالَ نُحاسِه ، وعلّق قِسطاسَه[٥] مِنْ أُمِّ راسِه ؛ فقال : رِطْلٌ بدرهَمَيْن ، وانتهشَها بالنّابَيْن ، فصاحَ : القارعة[٦] ما القارعة ؟ ! هيه[٧] ! ويلٌ للمرء مِنْ فيه !

ورأى الزَّلابيّة ، فقال : ويلٌ لأمّها الزانية ، أبأحْشائي نُسِجَتْ ، أم مِنْ صِفاقِ قلبي[٨] أُلْفِتَتْ ؟ فإني أجدُ مكانَها مِنْ نفسي مكيناً ، وحبْلَ هواها على كَبِدي متيناً ، فمن أين وصلتْ كفُّ طابِخها إلى باطِني ، فاقتطَعَتْها

---

١ الخبيص : حلواء تصنع من العسل والدقيق ، أو من التمر والسمن ، أو من الدبس والأرز .
٢ ماء البيض : أي زلال البيض .
٣ القبيطاء : الناطف ، وهي الحلوى البيضاء التي تؤكل مع السنبوسق ، وتعرف عندنا بكرابيج حلب .
٤ النقرة : القطعة المذابة من الذهب أو الفضة .
٥ القسطاس : الميزان .
٦ القارعة : أي القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها .
٧ هيه : كلمة استزادة ، أو كلمة تقال لشيء يطرد .
٨ صفاق القلب : أي غشاؤه .

من دواجِني[١] ؟ والعزيزِ الغفّار ، لأطلُبَنّها بالثّار ! ومشى إليها ، فتلَمّظ[٢] له لسانُ الميزان ، فأجْفَلَ يصيحُ : الثُّعبانَ الثُّعبان !

ورُفع له تمرُ النَّشا[٣] ، غيرَ مَهْضُومِ الحَشا ، فقال : مَهْيَم[٤] ! من أينَ لكم جنَى نخلةِ مَريم[٥] ؟ ما أنتم إلاَّ السُّحّار ، وما جزاؤكم إلاَّ السّيفُ والنّار . وهمَّ أن يأخذَ منها . فأثْبَتَ[٦] في صدرِه العَصا ، فجلس القُرْفُصا ، يُذري الدُّموع ، ويُبدي الخُشُوع . وما منّا أحد إلاَّ عن الضَّحِك قد تجلّد . فرقّتْ له ضُلوعِي ، وعلمتُ أنَّ اللهَ فيه غيرُ مُضيعِي . وقد تَجمُل الصَّدقةُ على ذوي وَفْر ، وفي كلِّ ذي كَبِدٍ رَطْبةٍ أجْر . فأمرْتُ الغلامَ[٧] بابتياعِ أرطالٍ منها تجمَعُ أنواعَها التي أنطقتْه وتحتوي على ضُروبها التي أضرَعتْه[٨] ، وجاء بها وسِرنا إلى مكانٍ خالٍ طيِّب ، كوصف المُهلّبي[٩] :

خانٌ تَطيبُ لباغِي النُّسْكِ خَلوَتُهُ وفيه سَتْرٌ على الفُتّاكِ إنْ فتَكُوا[١٠]

---

١ دواجني : أي أحشائي التي ألفت باطني .

٢ تلمظ : أي خرج لسانه وتحرك .

٣ تمر النشا : الظاهر أنه حلواء تصنع من التمر والنشا .

٤ مهيم : اسم فعل للأمر ، ومعناه أخبرني .

٥ نخلة مريم : إشارة إلى الآية في سورة مريم : «وهزي إليك بجذع النخلة ، تساقط عليك رطباً جنياً .»

٦ فأثبت : الضمير يعود إلى الحلواني .

٧ الغلام : في الأصل الحلواني ، والتصحيح عن يتيمة الدهر .

٨ أضرعته : أذلته .

٩ المهلبي : هو أبو محمد المهلبي الشاعر ، وزير معز الدولة بن بويه .

١٠ الفتاك : أصحاب المجون .

فصبَّها رَطْبَةَ الوُقوع ، كراديسَ كقِطَعِ الجُذوع ؛ فجعَلَ يقطَعُ ويبلَعُ ، ويَدحُو[1] فاه ويَدفَع ، وعَيناه تَبِصَّان كأنهما جَمْرتان ، وقد برَزَتا على وجهِه كأنَّهما خُصْيَتان ، وأنا أقولُ له : على رِسْلِكَ أبا فلان ! البِطنةُ تُذهِبُ الفِطنة ! فلمَّا التَقَمَ جُمْلَةَ جماهيرِها ، وأتى على مآخيرِها ، ووصَلَ خَوَرْنَقَها بسَديرِها[2] ، تَجَشَّأ فهبَّت منه ريحٌ عقيم[3] ، أيقَنَّا لها بالعذابِ الأليم . فنثَرَتْنا شَذَرَ مَذَر ، وفرَّقَتْنا شَغَرَ بَغَر[4] ، فالتَمَحْنا منه الظَّرِبان[5] ، وصدَّق الخبَرَ فيه العِيانُ : نَفَحَ ذلك فشَرَّد الأنعام[6] ، ونَفَخ هذا فبَدَّد الأنام ، فلم نَجتَمِع بعدَها ، والسَّلام .

فاستَحْسَنَاها ، وضحِكا عليها ، وقالا : إنَّ لسَجْعِكَ موضِعاً من القلب ، ومكاناً من النفس ، وقد أعرتَه مِنْ طَبْعِك ، وحَلاوةِ لَفظِك ، وملاحةِ سَوقِك ، ما أزالَ أفْنَه[7] ، ورفَع غَيْنَه[8] ، وقد بلَغَنا أنك لا تُجازى في أبناء جِنسك ، ولا يُمَلُّ من الطَّعْن عليك ، والاعتراض لك . فمَنْ أشَدُّهم عليك ؟ قلت : جاران دارُهما صَقَبٌ[9] ، وثالثٌ نابَتْه نُوَب ؛ فامتَطى ظَهرَ

---

١ يدحو : يبسط .

٢ الخورنق والسدير : قصران في الحيرة للنعمان الأكبر ، وقيل السدير موضع في الحيرة أو نهر .

٣ ريح عقيم : أي لا تلقح سحاباً ولا شجراً .

٤ فرقتنا شغر بغر : أي فرقتنا في كل وجه ، مثل شذر مذر .

٥ الظربان : دويبة كالهرة نتنة الريح .

٦ نفح : أخرج ريحه . ذلك : أي الظربان . الأنعام : في يتيمة الدهر : النعام .

٧ الأفن : النقص .

٨ الغين : الغيم ، والغشاء والإلباس .

٩ الصقب : القريب للمذكر والمؤنث ، والقرب .

النَّوى ، وألْقَتْ به في مَرَقُسْطَةَ العَصا . فقالا : إلى أبي محمدٍ تُشير ، وأبي القاسم وأبي بَكر ؟ قلت : أجل . قالا : فأين بلَغتَ فيهم ؟ قلت : أمّا أبو مُحمدٍ فانتضى عليَّ لِسانَه عندَ المستَعين[1] ، وساعدتْه زَرافةٌ[2] استَهْواها من الحاسدين ، وبلغني ذلك فأنشدتُه شِعراً ، منه :

وبُلِّغْتُ أقواماً تَجيشُ صُدورُهمْ عَليَّ ؛ وإني منهُمُ فارِغُ الصَّدْرِ
أصاخُوا إلى قولي فأسْمَعْتُ مُعْجِزاً ، وغاصُوا على سِرّي فأعْياهُمُ أمري
فقال فريقٌ : ليس ذا الشِّعْرُ شِعْرَهُ ؛ وقال فريقٌ : أيْمُنُ اللهِ ، ما نَدري[3]
أما عَلِمُوا أني إلى العِلمِ طامِحٌ ؛ وأني الذي سَبْقاً على عِرْقِه يَجْري؟
وما كلُّ مَنْ قادَ الجِيادَ يَسُوسُها ؛ ولا كلُّ من أجْرى يُقالُ له : مُجْري
فمَنْ شاء فليَخْبُرْ فإنيَ حاضرٌ ، ولا شيءَ أجلى للشُّكُوكِ من الخُبْرِ

وأمّا أبو بكرٍ فأقْصَر ، واقتَصَر على قوله : له تابعةٌ تُؤيّدُه . وأمّا أبو القاسمِ الإفليلي[4] فمكانُه من نفسي مَكين ، وحُبّه بفؤادي دخيل ؛ على أنّه حاملٌ عليَّ ، ومنتسب إليَّ .

---

١ المستعين : الخليفة الأموي سليمان بن الحكم الذي انتقلت الخلافة في قرطبة بعد مقتله إلى علي بن حمود الإدريسي .

٢ الزرافة : الجماعة من الناس ، أو العشرة منهم .

٣ الأيمن : جمع اليمين ، أي القسم ، وهذا مثل قولك : فقلت : يمين الله .

٤ الإفليلي : قال ابن حيان : وكان أبو القاسم المعروف بابن الإفليلي ، قد بذ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي ، والضبط لغريب اللغة ، وكان راكباً رأسه في الخطإ البين يجادل عليه ، ولا يصرفه صارف عنه .

صاحب الإفليلي

فصاحا : يا أنفَ النّاقةِ بنَ مَعْمَر ، مِن سُكّانِ خَيْبر ! فقام إليهما جِنّيٌّ أشمطُ رَبْعةٌ وارِمُ الأنْف ، يتظالَعُ[1] في مِشْيَته ، كاسِراً لطَرْفِه ، وزاوِياً لأنفِه ، وهو يُنْشِد :

قَومٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ ، ومَنْ يُسَوّي بأنفِ الناقةِ الذَّنَبا ؟[2]

فقالا لي : هذا صاحبُ أبي القاسم ، ما قولُك فيه يا أنفَ النّاقة ؟ قال : فتًى لم أعرِفْ على مَنْ قرأ . فقلتُ لنفسي : العصا من العُصَيّة[3] ! إن لم تُعرِبي عن ذاتِك ، وتُظْهِري بعضَ أدَواتِك ، وأنتِ بينَ فُرسانِ الكلامِ ، لم يَطِرْ لكِ بعدَها طائر ، وكنتِ غرَضاً لكلّ حَجَرٍ عابر .

وأخذتُ للكلامِ أُهْبَتَهُ ، ولبِستُ للبيانِ بِزّتَهُ ، فقلتُ : وأنا أيضاً لا أعرِف على مَن قرأت . قال : ألِمِثلي يُقال هذا ؟ فقلت : فكان ماذا ؟ قال : فطارِحْني كتابَ الخليل . قلتُ : هو عِندي في زِنْبيل . قال : فناظِرني على كتابِ سِيبَوَيْه . قلتُ : خَرِيت الهِرّةُ عندي عليه ، وعلى شرح ابن دَرَسْتَوَيْه .

---

١ يتظالع : يغمز في مشيته .

٢ هذا البيت للحطيئة في مدح بني أنف الناقة .

٣ العصا : فرس لجذيمة بن الأبرش . العصية أمها ، ومنه المثل : لا يلد العصا غير العصية ، أي أن الفرع يشبه الأصل ، كما يشبه الإفليلي أنف الناقة .

فقال لي : دعْ عنكَ ، أنا أبو البيان . قلت : لاهَ اللهُ[1] ! إنما أنتَ كمُغَنٍّ وَسَط ، لا يُحسِنُ فيُطرِب ، ولا يُسيء فيُلهِي[2] . قال : لقد علّمنيه المؤدِّبُون . قلتُ : ليس هو من شأنهم ، إنما هو من تعليم الله تعالى حيثُ قال : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرآنَ خَلَقَ الإنسانَ عَلَّمَهُ البيان . » ليسَ من شِعرٍ يُفَسَّر ، ولا أرضٍ تُكَسَّر . هيهات ، حتى يكونَ المِسْكُ من أنفاسِك ، والعنبرُ من أنقاسِك[3] ؛ وحتى يكون مَساقُكَ عَذباً ، وكلامُك رَطْباً ، ونَفَسُك مِنْ نَفْسِك ، وقَليبُك[4] من قلبِك ؛ وحتى تتناولَ الوضيعَ فترفعَه ، والرفيعَ فتضعَه ، والقبيحَ فتحسِّنَه !

قال : أسمِعْني مِثالاً . قلتُ : حتى تَصِفَ بُرغُوثاً فتقول :

صفة برغوث

أسْوَدُ زَنجِيّ ، وأهليٌّ وَحْشِيّ ؛ ليس بِوانٍ ولا زُمَيْلٍ[5] ، وكأنه جُزْء لا يتجزّأ مِن ليل ؛ أو شُونِيزة[6] ، أوثقَتْها[7] غريزة ؛ أو نقطةُ مِداد ،

---

١ لاه : تستّر وعلا وارتفع . وجوز سيبويه اشتقاق اسم الجلالة منه ، ولاه الله بمعنى تعالى الله .

٢ ألهى : ترك الشيء عجزاً .

٣ الأنقاس : جمع النقس ، وهو المداد .

٤ القليب : البئر .

٥ الزميل : الجبان الضعيف .

٦ الشونيزة : الحبة السوداء . في الأصل : وشونيزة ، والتصحيح عن يتيمة الدهر .

٧ أوثقتها : أحكمتها .

أو سُوَيْداءُ قلبِ قُراد[1] ؛ شُربه عبّ ، ومَشْيه وَثْب ؛ يَكْمُنُ نهارَه ، ويَسْري ليلَه ؛ يدارك بطَعْنٍ مؤلم ، ويَستَحِلُّ دمَ كلَّ كافرٍ ومُسلِم[2] ؛ مُساوِرٌ[3] للأساوِرة[4] ، يَجُرُّ ذيلَه على الجبابرة ؛ يتكفّرُ[5] بأرفعِ الثّياب ، ويهتِكُ سِتْرَ كلّ حِجاب ، ولا يحفِلُ ببوّاب ؛ يرِدُ مَناهِلَ العَيش العَذبة ، ويَصِلُ إلى الأحراج[6] الرَّطْبة ، لا يَمنَعُ منه أمير ، ولا يَنفَعُ فيه غَيرةُ غَيور ، وهو أحقر كلّ حقير ؛ شرُّه مَبْثوث ، وعَهدُه منكوث ، وكذلك كلُّ بُرغُوث ، كفى بهذا نَقْصاً للإنسان ، ودلالةً[7] على قُدرةِ الرَّحمَن .

صفة ثعلب

وحتى تصِف ثعلباً فتقول : أدهى من عمرو[8] ، وأفتكُ من قاتِلِ حُذَيفةَ

---

١ القراد : حلمة الثدي ، ودويبة تتعلق بالبعير ونحوه كالقمل في الإنسان .

٢ يدارك : في الأصل يدرك ، والتصحيح عن يتيمة الدهر . كافر : ناقصة في الأصل ، والزيادة عن يتيمة الدهر .

٣ مساور : مواثب .

٤ الأساورة : الفرسان الثابتون على ظهور خيولهم ، والذين يجيدون الرمي بالسهام .

٥ يتكفر : يتستر .

٦ الأحراج : جمع الحرج بالتحريك ، وهو المكان الضيق الكثير الشجر ويكنى به عن الحرمة ، ونرجح أن في الجمع تصحيفاً ، فهو بالحاء كما أورده الثعالبي في يتيمة الدهر .

٧ ودلالة : في الأصل : ودالا ، والتصحيح عن يتيمة الدهر .

٨ عمرو : أي ابن العاص .

ابن بَدْر[1] ؛ كثيرُ الوقائع في المسلمين ، مُغْرًى بإراقةِ دماء المؤذّنين[2] ؛ إذا رأى الفُرصة انتهزّها ، وإذا طلبَتْه الكُماةُ أعجزَها ؛ وهو مع ذلك بُقْراطُ[3] في إدامِه[4] ، وجالينُوسُ[5] في اعتِدال طَعامِه ؛ غداؤه حَمَامٌ أو دَجاج ، وعَشاؤه تَدرُج[6] أو دُرَّاج[7] .

صاحب بديع الزمان

وكان فيما يقابلُني من ناديهم فتًى قد رَماني بطَرْفه ، واتّكأ لي على كفّه ، فقال : تَحيَّلٌ على الكلام لطيفٌ ، وأبيك ! فقلت : وكيفَ ذلك ؟ قال : أوَما علمتَ أنّ الواصفَ إذا وَصَفَ شيئاً لم يُتقدَّم إلى صفتِه ، ولا سُلِّط الكلامُ على نَعْتِه ، اكتفى بقليلِ الإحسان ، واجتزى[8] بيَسيرِ البَيان ؟ لأنه لم يتقدَّمْ وصفٌ يُقرَنُ بوصفِه ، ولا جَرى مَساقٌ يُضافُ إلى مساقِه . وهذه

---

١ حذيفة بن بدر : سيد بني فزارة ، قتل في حرب داحس والغبراء .

٢ المؤذنين : جمع المؤذن ، وهو هنا الديك لأنه يؤذن في الصباح ، كأنه يسبح لله .

٣ بقراط : أعظم طبيب يوناني في القديم .

٤ الإدام : ما يؤتدم به من الطعام ، ويعرف بالدامة عند العامة .

٥ جالينوس : طبيب يوناني قديم اشتهر بالتشريح .

٦ التدرج : طائر جميل المنظر جداً ، يغرد في البساتين بأصوات طيبة ، وموطنه بأرض خراسان وفارس وغيرهما ، وهو شبيه بالدراج إلا أنه أفضل منه لحماً .

٧ الدراج : طائر جميل المنظر ملون الريش ، زعموا أن لحمه يزيد في الدماغ والفطنة .

٨ اجتزى : اكتفى ، لغة في اجتزأ .

نُكتةٌ بغْذاذِيّة ، أنّى لكَ بها يا فتى المغرب ؟

فقلتُ لزُهير : مَنْ هذا ؟ قال : زُبْدةُ الحِقَب ، صاحب بديع الزمان . فقلتُ : يا زُبْدةَ الحِقَب ، اقترِحْ لي . قال : صِفْ جاريةً . فوصَفتُها . قال : أحسنتَ ما شئتَ أن تُحسِن ! قلتُ : أسمِعْني وصفَك للماء[1] . قال : ذلك من العُقْم[2] . قلت : بحَياتي هاتِه . قال : أزرقُ كعين السِّنّور ، صافٍ كقضيبِ البلّور ؛ انتُخِبَ[3] من الفُرات[4] واستُعمِل بعد البَيات[5] ، فجاء كلسان الشّمعة ، في صفاء الدمعة .

فقلتُ : انظُرْه ، يا سيّدي ، كأنّه عصيرُ صباح ، أو ذَوبُ قمرٍ لَيّاح[6] ؛ ينصَبُّ من إنائه ، انصبابَ الكوكبِ من سمائه ؛ العَيْنُ[7] حانُوتُه ، والفمُ عِفْريتُه ، كأنّه خيطٌ من غزْلِ فَلَق ، أو مِخْصَرٌ يُضرَبُ به من وَرِق[8] ؛ يُرفَعُ عنكَ فتَردَى[9] ، ويُصْدَعُ[10] به قلبُكَ فتحيا .

---

١ وصف الماء لبديع الزمان في المقامة المضيرية .

٢ من العقم : أي لا يولد شبيه له .

٣ انتخب : في المقامة المضيرية : استقي .

٤ الفرات : الماء العذب ، أو لعله أراد به دجلة ، لأن قصة المضيرة وقعت في بغداد ، يقال : الفراتان ، أي الفرات ودجلة .

٥ البيات : أي أن يبيت الماء في إناء تحت السماء ليبرد ، ويصفى .

٦ لياح : أبيض ناصع .

٧ العين : أي عين الماء .

٨ المخصر : رواية يتيمة الدهر : المخصرة ، وهي قضيب كان الأمير يأخذه بيده ، يشير به ويصل به كلامه . الورق : الفضة .

٩ تردى : أي تهلك عطشاً .

١٠ يصدع : يشق .

فلمّا انتهيتُ في الصَّفَّة ، ضَرَبَ زُبدةُ الحِقَبِ الأرضَ بِرِجْله ، فانفرَجَتْ له عن مثلِ بَرَهُوتَ[1] ، وتدَهْدى[2] إليها ، واجتمعتْ عليه ، وغابت عَينُه ، وانقطع أثرُه . فاستضحكَ الأستاذان من فِعله ، واشتدَّ غيظُ أنفِ النّاقةِ عليَّ .

رجع إلى أنف الناقة

فقال : وقعتْ لك أوصافٌ في شِعْرِك تظُنُّ أني لا أستَطيعُها ؟ فقلتُ له : وحتّى تَصِفَ عارضاً[3] فتقول :

ومُرتَجِزٍ ألقى بذي الأثْلِ كَلكَلاً ، وحَطَّ بجَرْعاء الأبارِقِ ما حَطّا[4]
سَعى في قيادِ الرِّيحِ يُسْمِحُ للصَّبا ، فألقَتْ على غَيرِ التِّلاعِ به مِرْطا[5]
وما زال يُروي التُّربَ حتّى كسا الرُّبى دَرانِكَ ، والغيطانَ من نسجِه بُسْطا[6]

---

١ برهوت : واد أو بئر بحضرموت .

٢ تدهدى : تدحرج .

٣ العارض : السحاب المعترض في السماء .

٤ المرتجز : السحاب يتحرك بطيئاً لكثرة مائه ، ويتدارك صوت رعده . الأثل : شجر عظيم يشبه الطرفاء . الجرعاء : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ، أو الكثيب ، جانب منه رمل ، وجانب حجارة . الأبارق : جمع الأبرق ، وهو غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلفة .

٥ على غير التلاع : أي على غير الأماكن المرتفعة . والتلاع مسايل المياه من الجبال والمرتفعات . المرط : كساء من صوف أو خز .

٦ الدرانك : الطنافس ، واحدها درنك بكسر فسكون فكسر ، والمراد الزهر الذي نبت عن المطر . الغيطان : جمع الغوط ، وهو المطمئن الواسع من الأرض .

وعَنّتْ له ريحٌ تُساقِطُ قَطرَهُ ، كما نَثَرَتْ حَسْناءُ من جيدِها سِمْطا
ولم أرَ دُرّاً بَدَّدَتْه يدُ الصَّبا سِواهُ ، فباتَ النَّورُ يَلقُطُه لَقْطا
وبِتنا نُراعي الليلَ لم نَطوِ بُرْدَهُ ، ولم يَجرِ شَيبُ الصُّبحِ في فَرْعِه وَخْطا
تَراهُ كَمَلْكِ الزَّنجِ في فَرطِ كِبرِهِ ، إذا رامَ مَشياً في تَبَختُرِهِ أبْطا
مُطِلاً على الآفاقِ والبَدْرُ تاجُهُ ، وقد عَلَّقَ الجوزاءَ من أذنِه قُرطا

وحتى تصِفَ ذئباً فتقول :

إذا اجتازَ عُلْوِيُّ الرّياحِ بأُفقِهِ ، أجَدَّ ، لِعِرفانِ الصَّبا ، يتنفّسُ[1]
تذكّرَ رَوضاً من شَوِيٍّ وباقِرٍ ، تَوَلّتْه أحْراسٌ من الذُّعرِ تُحْرَسُ[2]
إذا انْتابَها مِن أذؤُبِ القَفْرِ طارِقٌ حثيثٌ ، إذا ما استَشعرَ اللحظَ يَهمِسُ[3]
أزَلُّ كسَا جُثمانَه مُتَسَتِّراً طَيالِسَ سُوداً للدُّجى وهو أطْلَسُ[4]
فَدَلَّ عليهِ لحظُ خِبٍّ مُخادِعٍ ، تَرَى نارَهُ مِن ماءِ عَينَيهِ تُقبَسُ[5]

فصاح فِتيانُ الجنّ عندَ هذا البيتِ الأخير : زاهِ[6] ! وعلتْ أنفَ الناقةِ

---

١ أجد : أسرع .
٢ الشوي : الشاء . الباقر : اسم جمع للبقر .
٣ استشعر : خاف . يهمس : يسير بالليل .
٤ الأزل : القليل اللحم ، والسريع . الأطلس : الذئب الأمعط في لونه غبرة إلى سواد .
٥ الخب : المخادع الخبيث الغاش .
٦ زاه : حكاية صوت المرتضي والمتعجب ، لم نجد لها ذكراً في كتب اللغة ، وإنما ذكر زه زه : حكاية قول المرتضي ، وزي زي : حكاية صوت الجن .

كآبةٌ ، وظهرتْ عليه مهابةٌ ، واختلط كلامُه ، وبدا منه ساعتئذٍ بوادٍ في خطابه ، رَحِمهُ لها مَن حضر ، وأشفق عليه من أجلِها مَن نظر .

صاحب أبي إسحاق بن حمام

وشمَّرَ لي فتًى ، كان إلى جانبه ، عن ساعدٍ ، وقال لي : وهل يَضُرُّ قريحتَك ، أو ينقُصُ مِن بَديهتِك لو تجافَيتَ لأنفِ النّاقة ، وصبرتَ له ؟ فإنّه على عِلاّتِه زبرُ عِلمٍ ، وزِنْبيلُ فَهْمٍ ، وكَنَفُ رِوايةٍ . فقلتُ لزهير : مَنْ هذا ؟ فقال : هو أبو الآداب صاحب أبي إسحاق بن حُمامٍ جارِك . فقلتُ : يا أبا الآداب ، وزهرةَ رَيحانةِ الكُتّاب ، رِفقاً على أخيك بغَرْبِ لِسانِك[1] ، وهل كان يضُرُّ أنفَ النّاقة ، أو ينقُصُ من علمه ، أو يفُلُّ شَفْرةَ فهمه ، أن يصبِرَ لي على زَلّةٍ تمرُّ به في شِعرٍ أو خُطبة ، فلا يهتِفُ بها بين تلاميذِه ، ويجعلُها طَرْمَذةً[2] من طراميذِه ؟ فقال : إنَّ الشُّيُوخَ قد تَهْفو أحلامُهم في النُّدرة . فقلت : إنها المرَّةُ بعدَ المرّة .

ثم قال لي الأستاذانِ عُتبةُ بن أرقم ، وأبو هُبَيرةَ صاحب عبدِ الحميد : إنّا لنَخْبِطُ منك ببَيْداء حَيرة ، وتُفتَقُ أسماعُنا منك بعبرة ، وما نَدري أنقولُ : شاعرٌ أمْ خطيب؟ فقلتُ : الإنصاف أولى ، والصَّدْعُ بالحقّ أحجى ، ولا بُدَّ من قضاء . فقالا : اذهبْ فإنّك شاعرٌ خطيب .

وانفَضَّ الجمْع والأبصارُ إليَّ ناظِرة ، والأعناقُ نَحوي مائلة .

---

١ غرب اللسان : حدته .

٢ الطرمذة : الصلف والمفاخرة .

الفصل الثالث

نقاد الجن

مجلس أدب

وحضَرتُ أنا أيضاً وزهيرٌ مجلساً من مجالسِ الجنّ ، فتذاكرْنا ما تعاوَرَتْه الشّعراءُ من المعاني ، ومَن زاد فأحسَنَ الأخْذَ ، ومَن قصّر . فأنشدَ قولَ الأفوَهِ[1] بعضُ من حضَر :

وترى الطّيرَ على آثارِنا   رأيَ عَينٍ ، ثِقَةً أن ستُمارْ[2]

وأنشَدَ آخَرُ قولَ النابغة :

إذا ما غزَوا بالجيشِ حلّقَ فوقَهُمْ   عَصائبُ طَيرٍ تَهتَدي بعَصائبِ
تَراهُنَّ خلفَ القومِ خُزْراً عيُونُها   جُلُوسَ الشيوخِ في ثِيابِ المرانبِ[3]

---

١ الأفوه : أي الأفوه الأودي ، شاعر جاهلي .
٢ ستمار : أي ستعطى ميرتها من جثث القتلى .
٣ الخزر : جمع الأخزر ، وهو الذي ينظر بمؤخر عينه . المرانب : ثياب سود أو أكسية من جلود الأرانب . يشبه النسور وسواها من الجوارح ، وما عليها من الريش ، بشيوخ عليهم الفراء .

جَوانِحَ ، قد أيْقَنَّ أنَّ قَبيلَهُ ، إذا ما التَقى الجَيشانِ ، أوّلُ غالِبِ

وأنشدَ آخرُ قولَ أبي نُواس :

تتَأيّا الطّيرُ غَدوَتَهُ ثِقَةً بالشِّبْعِ من جَزَرِه[1]

وأنشد آخرُ قولَ صَريعِ الغَواني[2] :

قد عوَّدَ الطّيرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها ، فهُنَّ يَتْبَعْنَهُ في كلّ مُرتَحَلِ

وأنشدَ آخرُ قولَ أبي تَمّام :

وقد ظُلِّلَتْ عِقْبانُ أعلامِهِ ضُحًى بِعِقْبانِ طَيرٍ في الدِّماء نواهِلِ[3]
أقامَتْ معَ الرّاياتِ حتى كأنّها من الجيشِ ، إلاّ أنّها لم تقاتِلِ

فقال شَمَرْدَلُ السَّحابيّ : كُلُّهم قصّر عن النابغة ؛ لأنه زاد في المعنى ودلَّ على أنَّ الطيرَ إنّما أكَلَتْ أعداءَ الممدوح ، وكلامُهم كلهم مشتَرَك يحتَملُ أن يكونَ ضِدَّ ما نَواهُ الشاعر ، وإن كان أبو تَمّامٍ قد زاد في المعنى . وإنّما المحسنُ المتَخلّصُ المتنبي حيثُ يقول :

لهُ عسكَرَا خيلٍ وطيرٍ إذا رمى بها عَسكَراً لم تَبْقَ إلاّ جماجِمُه[4]

---

١ تتأيا : تقصد وتتعمد . غدوته : أي إلى الحرب . من جزره : أي ما يترك من لحوم القتلى فريسة لها .

٢ صريع الغواني : مسلم بن الوليد ، الشاعر العباسي .

٣ العقبان الأولى : الرايات .

٤ بها : الضمير عائد إلى الخيل والطير لا إلى عسكرا .

وكان بالحَضْرةِ فتًى حسَنُ البِزَّة، فاحتدَّ لقولِ شَمَرْدَل، فقال : الأمرُ على ما ذكرتَ يا شَمَرْدل ، ولكنْ ما تَسألُ الطيرُ إذا شبِعَتْ أيُّ القَبيلين الغالب ؟ وأمّا الطّيرُ الآخر فلا أدري لأيّ معنًى عافتِ الطيرُ الجماجمَ دونَ عِظامِ السُّوقِ والأذرُعِ والفقّارات والعصاعِص ؟ ولكنَّ الذي خلّص هذا المعنى كلّه ، وزاد فيه ، وأحسَنَ التركيب ، ودَلَّ بلفظةٍ واحدةٍ على ما دلَّ عليه شعرُ النابغةِ وبيتُ المتنبي ، مِن أن القَتلى التي أكلَتْها الطيرُ أعداءُ الممدوح ، فاتِكُ بنُ الصَّقْعَب في قوله :

وتَدْري سِباعُ الطيرِ أنَّ كُماتَهُ ، إذا لَقِيَتْ صِيدَ الكُماةِ ، سِباعُ[1]
لهُنَّ لُعابٌ في الهَواء وهِزَّةٌ ، إذا جَدَّ بينَ الدّارِعِينَ قِراعُ
تَطيرُ جِياعاً فَوقَهُ وتَرُدُّها ظُباهُ إلى الأوكارِ وهْيَ شِباعُ
تَمَلّكَ بالإحسانِ رِبْقَةَ رِقّها ، فهُنَّ رقيقٌ يُشترى ويُباعُ
والحَمَ مِن أفراخِها فَهْيَ طَوعُهُ ، لدى كلِّ حربٍ ، والمُلُوكُ تُطاعُ[2]
تُماصِعُ جَرحاها فيُجْهِزُ نَقْرُها عليهِمْ ، وللطّيرِ العِتاقِ مِصاعُ[3]

فاهتزَّ المجلِسُ لقوله ، وعلِموا صِدقَه . فقلتُ لزهير : مَنْ فاتِكُ بنُ الصَّقْعَب ؟ قال : يعني نفسَه . قلتُ له : فهَلاَّ عرَّفْتني شأنَه منذ حين ؟ إني لأرى نزَعاتٍ كريمة . وقمتُ فجلَستُ إليه جِلسةَ المعظِّم له . فاستدارَ نحوي ،

---

١ الصيد : جمع الأصيد وهو الرافع الرأس كبراً .
٢ ألحم : أطعم اللحم . من أفراخها : لبيان الجنس .
٣ تماصع : تقاتل .

مُكْرِماً لِمَكاني ، فقلت : جُد أرضَنا ، أعزَّكَ اللهُ ، بسَحابك ، وأمطِرْنا بعُيون آدابك . قال : سَلْ عمّا شئت. قلتُ : أيُّ معنًى سبَقَكَ إلى الإحسان فيه غيرُك ، فوجدتَه حين رُمتَه صَعباً عليك إلاّ أنّك نفَذتَ فيه ؟ قال : معنى قول الكِنْديّ[1] :

سَمَوتُ إليها بَعدما نامَ أهلُها ، سُمُوَّ حَبابِ الماء حالاً على حالِ

قلتُ : أعزَّكَ الله ، هو من العُقْم . ألا ترى عُمرَ بنَ أبي ربيعةَ ، وهو من أطبَعِ الناسِ ، حين رامَ الدُّنُوَّ منه والإلمامَ به ، كيف افتضَح في قوله :

ونفَضتُ عنّي النّومَ أقبلتُ مِشيَةَ الـ حُبابِ ، ورُكْني خيفَةَ القومِ أزوَرُ[2]

قال : صدقتَ ، إنّه أساء قِسْمةَ البيتِ ، وأراد أن يُلْطِفَ التَّوصُّل ، فجاء مُقبِلاً برُكْن كرُكْنِه أزْور . فأعجَبني ذلك منه[3] ، وما زلتُ مقدِّماً لهذا المعنى رِجلاً ، ومؤخِّراً عنه أخرى ، حتى مرَرْتُ بشيخٍ يُعلّمُ بُنَيّاً له صناعةَ الشّعر وهو يقولُ له : إذا اعتمدتَ معنًى قد سبقَكَ إليه غيرُك فأحْسِنَ تركيبَه ، وأرَقَّ حاشيتَه فاضرِبْ عنه جُملة . وإن لم يكن بُدٌّ ففي غير العَروض التي تقدَّم إليها ذلكَ المُحْسِنُ ، لتَنشَطَ طبيعتُك ، وتَقوى مُنّتُك[4] .

---

١ الكندي : أي امرؤ القيس .

٢ خيفة : في رواية : خشية . ورواية الديوان :

وخفّض عنّي الصوت أقبلت مشية الـ حباب ، وشخصي خشية الحي أزور

٣ منه : أي من الكندي .

٤ المنة بالضم : الضعف ، والقوة ، من الأضداد .

فتذكرتُ قولَ الشاعر[1] وقد كنتُ أُنسيتُه :

لَمّا تسامى النّجْمُ في أُفْقِهِ ... ولاحتِ الجَوزاءُ والمِرزَمُ[2]
أقبَلتُ والوَطءُ خفيفٌ كما ... يَنسابُ من مَكمَنِه الأرقَمُ[3]

فعلِمتُ أنّه صدَق ؛ وابن أبي ربيعة لو ركِب غيرَ عَروضِه لتخلّص . فقلتُ أنا في ذلك :

ولَمّا تَمَلّأ مِنْ سُكرِهِ ... فنامَ ، ونامتْ عيونُ العَسَسْ[4]
دنَوتُ إليه ، على بُعْدِهِ ، ... دُنُوَّ رفيقٍ درى ما التّمَسْ
أدِبُّ إليه دَبيبَ الكَرى ، ... وأسْمُو إليه سُمُوَّ النّفَسْ
وبِتُّ به ليلَتي ناعِماً ، ... إلى أن تبَسَّمَ ثَغْرُ الغَلَسْ
أُقبّلُ منه بَياضَ الطُّلا ، ... وأرشُفُ منه سَوادَ اللَّعَسْ[5]

فقمتُ وقبّلتُ على رأسِه ، وقلتُ : للهِ دَرُّ أبيك !

---

١ الشاعر : هو إسماعيل بن يسار النسائي شاعر أموي من موالي بني تيم بن مرة ، تيم قريش ، وكان منقطعاً إلى آل الزبير ، ثم وفد على عبد الملك بن مروان ومدحه . وعاش عمراً طويلا إلى أن أدرك آخر سلطان بني أمية .

٢ المرزم : نجم ، وهما مرزمان مع الشعريين . رواية الأغاني :

حتى إذا الصبح بدا ضوءه ... وغارت الجوزاء والمرزم

٣ أقبلت : رواية الأغاني : خرجت . خفيف : رواية الأغاني : خفي .

٤ تملأ : امتلأ .

٥ الطلا : الأعناق ، أو أصولها ، واحدتها طلية أو طلاة . اللعس : سواد مستحسن في الشفة .

فقال لي فاتكُ بنُ الصَّقْعَب : فهل جاذبتَ أنتَ أحداً من الفُحول ؟ قلتُ : نعم ، قولَ أبي الطيّب :

أأخلعُ المجدَ عن كِتفي وأطلبُهُ ، وأتركُ الغَيْثَ في غِمْدي وأنْتَجِعُ؟[1]

قال لي : بماذا ؟ قلتُ : بقولي :

ومن قُبّةٍ لا يُدرِكُ الطَّرْفُ رأسَها ، تَزِلُّ بها رِيحُ الصَّبا فتَحَدَّرُ
إذا زاحَمَتْ منها المخارِمَ صَوَّبَتْ هُوِيّاً،على بُعْدِ المدى ، وهيَ تَجأرُ[2]
تَكَلَّفتُها، والليلُ قد جاشَ بحرُهُ ، وقدْ جعَلَتْ أمْواجُهُ تَتَكسّرُ ،
ومِن تحتِ حِضْني أبيَضُ ذو سَفاسِقٍ ، وفي الكَفِّ من عَسّالة الخَطِّ أسمَرُ[3]
هُما صاحِبايَ مِن لَدُنْ كُنتُ يافِعاً، مُقِيلانِ مِن جَدِّ الفَتى حِين يَعثُرُ[4]
فذا جَدْوَلٌ في الغِمْدِ تُسقى به المُنى ، وذا غُصُنٌ في الكفِّ يُجنى فيُثمِرُ

فقال : واللهِ لئن كان الغَيْثُ أبلغ ، فلقد زدتَ زيادة مليحة طَريفة ، واختَرعتَ معانيَ لطيفة . هل غيرُ هذا ؟ فقلتُ : وقوله أيضاً :

---

١ أأخلع : رواية الديوان : أأطرح . كنى بالمجد والغيث عن السيف لأنهما يدركان به ، والمراد بالغيث الخصب وسعة العيش .

٢ المخارم : أنوف الجبال ، والمراد هنا أعالي الخيمة . صوبت : ضد صعدت . تجأر : تصوت .

٣ السفاسق : طرائق السيف وشطبه .

٤ الجد : الحظ .

وأظما فلا أبدي إلى الماء حاجةً ··· وللشّمْسِ فوقَ اليَعْمَلاتِ لُعابُ[1]

قال : بماذا ؟ قلتُ : بقولي :

ولم أنسَ بالنّاوُوس أيّامَنا الأُلى ··· بها أيْنُنا مَحْبُوبُها وحَبابُها[2]
وفِتْيَةَ ضَرْبٍ من زَنَاتَةَ ، مُمْطِرٍ ··· بِوَبْلِ المنايا طَعْنُها وضِرابُها
وقفنا على جَمْرٍ منَ الموتِ وقفةً ، ··· صِلِيٌّ لَظاهُ دابُ قومي ودابُها
إذا الشمسُ رامتْ فيه أكلَ لُحُومِنا ، ··· جرى جَشَعاً فوقَ الجِيادِ لُعابُها

فصاحَ صيحةً مُنكَرةً من صِياحِ الجنّ كاد يُنخَبُ[3] لها فؤادي فَزَعاً ، والله ، منه !

وكان بنَجوَةٍ منّا جِنّيٌّ كأنّه هضْبة لركانتِه وتقبُّضِه ، يحدّق فيَّ دُونَهم ، يَرميني بسهمَين نافذَين ، وأنا ألُوذُ بطَرفي عنه ، وأستعيذُ بالله منه ، لأنه مَلأ عيني ونفسي . فقال لي لَمّا انتهَبْتُ ، وقد استخفّهُ الحسَد : على مَن أخذتَ الزّميرَ[4] ؟ قلتُ : وإنّما أنا نَفّاخٌ عندكَ منذُ اليوم ؟ قال : أجل ! أعطنِا كلاماً يَرعى تِلاعَ الفصاحَة ، ويستحِمُّ بماء العُذوبةِ والبَراعة ، شديدَ الأسْر

---

١ وأظما : رواية الديوان : وأصدى ، وهي أجود . اليعملات : النياق النجيبة . لعاب الشمس: ما يراه المسافر من أشعة الظهيرة كأنه خيوط تتدلى فوق رأسه ، ويكون ذلك وقت اشتداد الحر .

٢ الناووس : القبر ، وهنا موضع بعينه . الأين : الإعياء . ولعلها آينا جمع آية ليستقيم وجه الكلام . حبابها : مبلغ جهدها ، وبكسر الحاء : الوداد .

٣ ينخب : ينزع .

٤ الزمير : النفخ في القصب .

جيّدَ النّظام ، وضَعْه على أيّ معنًى شئتَ . قلت : كأيّ كلام ؟ قال : ككلام أبي الطيّب :

نزَلْنا على الأكوارِ نَمْشي كرامةً لِمَنْ بان عنه ، أنْ نُلِمَّ به رَكْبا[1]
نَذُمُّ السّحابَ الغُرَّ في فِعْلِها به ، ونُعْرِضُ عنها، كلّما طلَعَتْ، عَتْبا[2]

وكقوله :

أرأيْتَ أكْبَرَ هِمّةً من ناقَتي ، حَمَلَتْ يداً سُرُحاً وخُفّاً مُجْمَرا[3]
تَرَكَتْ دُخانَ الرِّمْثِ في أوطانِها ، طَلَباً لقومٍ يُوقِدُونَ العَنْبَرا[4]
وتَكرَّمَتْ رُكَباتُها عن مَبْرَكٍ تقَعانِ فيه ، وليسَ مِسْكاً أذفَرا[5]
فأتَتكَ دامِيَةَ الأظَلِّ كأنّما حُذِيَتْ قوائِمُها العَقيقَ الأحْمَرا[6]

وكقوله :

على كلّ طاوٍ تحتَ طاوٍ كأنّما منَ الدّمِ يُسقَى أو منَ اللّحمِ يُطعَمُ[7]

---

١ الأكوار : رحال الإبل . عنه : أي عن الربع . والمراد : نمشي إلى الربع على الأقدام ، لا راكبين ، إكراماً للحبيب الغائب عنه .
٢ في فعلها به : أي أنها عفت آثاره .
٣ أكبر همة : رواية الديوان : أرأيت همة ناقتي في ناقة . السرح : السهلة السير . المجمر : الصلب ، وبكسر الميم : الخفيف السريع .
٤ الرمث : شجر من الغضا .
٥ الأذفر : الذكي الرائحة .
٦ الأظل : باطن الخف الذي يلي الأرض . حذيت : ألبست حذاء .
٧ الطاوي : الضامر البطن من الجوع ، ويراد بالأول الفرس ، وبالثاني راكبه .

لها تَحتَهم زِيُّ الفوارِسِ فوقَها ، فكُلُّ حِصانٍ دارعٌ مُتَلَثِّمُ [1]
وما ذاك بُخْلاً بالنُّفوسِ على القَنا، ولكنَّ صَدْمَ الشَّرِّ بالشَّرِّ أحزَمُ

فأدَّني [2] واللهِ بما قَرَّع به سمعي ، وقلتُ له : أيُّ ماء لو كان من جِمامِك [3] ، واستهلّت به عيونُ غَمامِك ! ثم استقدَمتُ فأنشدته :

ولرُبَّ لَيلٍ لِلهُمُومِ تَهَدَّلَتْ أستارُه فمَحا الصُّوى بسُتُورِهِ [4]
كالبحرِ يَضْرِبُ وجْهَهُ في وجْهِهِ ، صَعْبٌ على العُبّارِ وجهُ عُبورِهِ
طاوَلْتُه مِنْ عَزمَتي بمُضَبَّرٍ ، أثبَتُّ هَمّي في قَرارةِ كُورِهِ [5]
وعليَّ للصَّبرِ الجميلِ مُفاضَةٌ ، تَلقى الرَّدى ، فتَكِلُّ دون صَبُورِهِ [6]
وبِراحَتي من فِكرتي ذو ذُكرةٍ، عُهِدَتْ تُذاكِرُني بطَبعِ ذَكيرِهِ [7]
فَرْداً ، إذا بعَثَتْ دياجي جِنْحِهِ هَولاً عليَّ ، خَبَطْتُ في دَيجُورِهِ [8]
حتى بدا عبدُ العزيزِ لِناظِرَيْ أمَلي ، فمزَّقْتُ الدُّجى عن نُورِهِ [9]

---

١ لها تحتهم : في الديوان : لها في الوغى . زي الفوارس فوقها : أي على هذه الخيول التجافيف، بمنزلة الدروع على فرسانها الذين فوقها .
٢ أدني : دهاني بالأمر الفظيع .
٣ الجمام : جمع الجم ، وهو الماء أو معظمه . والمراد : لو كان هذا الشعر من نظمك .
٤ الصوى : جمع الصوة ، وهي حجارة تكون علامة في الطريق يهتدى بها .
٥ المضبر : البعير المكتنز اللحم المجتمع العظام .
٦ المفاضة : الدرع الواسعة .
٧ الذكرة : حدة السيف . الذكير : أيبس الحديد وأجوده .
٨ فرداً : حال من التاء بـ « طاولته » ، وتروى بالضم ، خبر لمبتدأ محذوف .
٩ عبد العزيز : هو المؤتمن بن عبد الرحمن بن عامر .

وأنشدته :

اللهَ في أرضٍ غُذيتَ هَواءها ، وعِصابةٍ لم تَتّهِمْ إشفاقَها[1]
نَكَزَتْهُمُ أفعى الخُطُوبِ، وعُوجِلُوا بمُثمَّلٍ منها ، فكُنْ دِرْياقَها[2]
وافتَحْ مَغالِقَها بعزمةِ فيصلٍ ، لو حاولَتْ سَوقَ الثُّريّا ساقَها[3]
ولوَ انّها منه ، إذا ما استَلّها ، تتعَرّضُ الجَوزاءُ ، حَلّ نِطاقَها[4]

وأنشدتُه :

لا تَبْكِيَنّ مِنَ اللّيالي أنّها حَرَمَتْكَ نَغْبَةَ شاربٍ من مَشرَبِ[5]
فأقَلُّ ما لكَ عندَها سيفُ الرّدى ، يُسْتَلُّ مِن شَعَرِ القَذالِ الأشيبِ
ورَحيلُ عَيشِكَ كلَّ رِحْلةِ ساعةٍ ، وفَناءُ طِيبِكَ في الزّمانِ الأطيَبِ
فإذا بَكَيْتَ فبَكٍّ عُمْرَكَ ، إنّهُ زَجِلُ الجَناحِ يمُرُّ مَرَّ الكوكَبِ[6]

وأنشدتُه :

ولم أرَ مِثْلي ما لهُ مِن مُعاصِرٍ ، ولا كَقَضائي ما لهُ مِن مُضافِرِ

---

١ الله : أي راقب الله .
٢ نكزته الأفعى : لسعته . المثمل : السم المنقع .
٣ ساقها : ضمير الرفع يعود إلى فيصل .
٤ نطاق الجوزاء : ثلاثة كواكب مستعرضة في وسط الجوزاء ، تسميها العرب النظم ، وهي مثل في الانتظام والالتئام .
٥ النغبة : الجرعة .
٦ زجل الجناح : أي سريعه وله صوت وجلبة .

ولو كانَ لي في الجوِّ كِسْرٌ أؤمُّهُ ، رَكِبْتُ إليه ظَهرَ فَتْخاءَ كاسِرِ[1]
وهَمَّتْ بإجْهاشٍ عليَّ ، وقد رأتْ مُصابيَ في آثار إحْدى الكَبائرِ
فقُلتُ لها : إن تَجزَعي من مُخاطِرٍ، فإنكِ لن تَحْظَيْ بغيرِ المَخاطِرِ
تشَهَّتْ ثِمارَ الوَفْرِ مني ، وإنَّها لدى كلِّ مُبْيَضِّ العَنانيزِ وافِرِ[2]
له في بَياضِ اليومِ يقظةُ فاجِرٍ ، وتحتَ سَوادِ الليلِ هَجْعةُ كافِرِ
رُوَيْدَكِ ، حتى تنظُري عَمَّ تَنجلي غَيابةُ هذا العارضِ المُتناثِرِ
ودونَ اعتزامي هَضْبَةٌ كِسْرَوِيَّةٌ ، من الحزمِ ، سَلمانيَّةٌ في المَكاسِرِ[3]
إذا نَحنُ أسْنَدنا إليها ، تبَلَّجَتْ مواردُنا عن نَيِّراتِ المَصادِرِ
وأنتَ،ابنَ حزمٍ ،مُنْعِشٌ من عِثارِها إذا ما شَرِقْنا بالجُدُودِ العَواثِرِ[4]
وما جرَّ أذيالَ الغِنى نَحوَ بَيْتِه كأروَعَ مُعْرَوْرٍ ظُهورَ الجَرائِرِ[5]
إذا ما تَبَغَّى نَضْرَةَ العيش كرَّها ، لدى مَشْرَعٍ للموتِ ، لمحةَ ناظِرِ[6]
فسَلَّ من التأويلِ فيها مُهَنَّداً أخُو شافِعيّاتٍ كريمُ العناصِرِ[7]

---

١ الكسر : جانب البيت ، والشقة السفلى من الخباء . الفتخاء : العقاب اللينة الجناح .
٢ العنانيز : كذا في الأصل ، ولا معنى له ، ويصح أن يكون الثنانين ، كما رأى مصححو الذخيرة .
٣ هضبة كسروية : يريد بها صديقه الفقيه أبا محمد بن حزم . سلمانية : نسبة إلى سلمان الفارسي الصحابي . المكاسر : جمع المكسر ، وهو المخبر والأصل .
٤ الجدود : الحظوظ .
٥ معرور : راكب . يقال اعرورى فرسه : ركبه عرياناً . الجرائر : الجنايات .
٦ كرها : الضمير يعود إلى الجرائر ، على تشبيهها بالخيل . المشرع : المنهل .
٧ شافعيات : كان ابن حزم في أول أمره يميل به النظر في الفقه إلى رأي أبي عبد الله بن إدريس الشافعي ، فناضل عن مذهبه وتعصب له، حتى وسم به ونسب إليه ، ثم عدل عنه إلى رأي الظاهرية ،=

لِمُعْتَزِليِّ الرَّأيِ ، ناءٍ عن الهُدى ، بَعيدِ المرامي ، مُسْتَميتِ البصائرِ[1]
يُطالِبُ بالهِنْديِّ في كلِّ فَتكةٍ ظُهُورَ المذاكي عن ظُهُورِ المنابرِ[2]

وأنشدتُه :

وقالت النفسُ لَمّا أنْ خلوتُ بها ، أشكو إليها الهوى خِلْواً منَ النِّعَمِ :
حتّامَ أنتَ على الضرّاءِ مُضْطجِعٌ ، مُعَرِّسٌ في ديارِ الظُّلْمِ والظُّلَمِ ؟[3]
وفي السُّرى لكَ ، لو أزمعْتَ مُرتحَلاً ، بُرْءٌ منَ الشوقِ ، أو بُرءٌ منَ العَدَمِ[4]
ثم استمرّتْ بفضْلِ القولِ تُنهِضُني ، فقلْتُ : إني لأستَحْيي بني الحكَمِ[5]
المُلحِفِينَ رِداءَ الشّمسِ مَجدَهُمُ ، والمُنْعِلينَ الثُّرَيّا أخْمَصَ القَدَمِ
ألِمتُ بالحُبِّ ، حتى لو دَنا أجَلي ، لَما وَجَدْتُ لطَعْمِ الموتِ من ألَمِ[6]
وذادَني كَرَمي عمّن وَلِهتُ به ، وَيلي منَ الحُبِّ ، أو وَيلي من الكرَمِ[7]

= مذهب داود بن علي وأتباعه ، فنفحه وجادل عنه ، وانحرف عن غيره من المذاهب ، وكان في جداله قاسياً حديد اللسان حتى استهدف إلى فقهاء وقته فتألّوا على بغضه ، وشنعوا عليه ، فلفظة الجرائر تنطبق على مجادلاته وتأويلاته الأليمة .

١ كان لابن حزم ردود عنيفة على المعتزلة في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل .

٢ المذاكي : الخيول التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .

٣ المعرس : الذي ينزل في مكان آخر الليل للاستراحة .

٤ العدم : الفقر .

٥ بني الحكم : أي أمراء بني أمية .

٦ ألمت : في الأصل ألمت ، ونبه على ذلك مصححو الذخيرة .

٧ ذادني : دفعني وردني .

تَخَوَّنَتْنِي رِجالٌ طالما شَكَرَتْ عَهْدِي ،وأثْنَتْ بما راعَيْتُ من ذِمَمِ
لَئِنْ وَرَدْتُ سُهَيْلاً غِبَّ ثالِثَةٍ ، لَتَقْرَعَنَّ عليَّ السِّنَّ مِنْ نَدَمِ[1]
هناك لا تَبْتَغِي غيرَ السَّناء يدي ، ولا تَخِفُّ إلى غيرِ العُلى قَدَمي
حتى تراني في أدنى مَواكِبِهِمْ ، على النَّعامةِ شَلاَّلاً مِنَ النَّعَمِ[2]
رَيَّانَ مِنْ زَفَراتِ الخيلِ أورِدُها أمواهَ نيطة تَهْوي فيه باللُّجُمِ[3]
قُدَّامَ أروَعَ من قومٍ وَجَدْتُهُمُ أرعى لِحَقِّ العُلى من سالفِ الأمَمِ

ففتحَ عليَّ عينَيْنِ كالماويَّتَيْنِ[4] ثم قال لي : من القائل ؟

طلَعَ البَدْرُ علينا ، فحسِبْناهُ لَبيبا
والتَقَيْنا ، فرأيْنا هُ بَعيداً وقريبا

قلتُ : أبي . قال : فمنِ القائل ؟

فيَا مَن إذا رامَ مَعْنى كلامي ، رأى نَفْسَهُ نُصْبَ تلكَ المعاني
شكَوتُ إليكَ صُروفَ الزَّمانِ ، فلمْ تَعْدُ أنْ كنتَ عَونَ الزَّمانِ

---

١ سهيل : نجم يماني ، والثريا من النجوم الشآمية ، فهما لا يلتقيان . وخطابه للأمير الأموي الذي قال عنه إنه أنعل الثريا أخمص قدمه . ولعله أراد بسهيل أحد أمراء بني حمود الذين كانوا ، في ذاك العهد ، ينازعون الأمويين الخلافة . ثالثة : أي ليلة ثالثة .
٢ النعامة : اسم فرس . شلال : يقال : فلان شلال النعم ، أي يطردها ويسوقها أمامه ، وتكون من غنائمه في الغزو . النعم : الإبل .
٣ نيطة : كذا في الأصل ، وهو كما يظهر اسم موضع ، أو نهر ، لم نتمكن من إثباته ، وإليه أرجع ضمير المذكر في قوله تهوي فيه .
٤ الماوية : المرآة .

وتَقْصُرُ عن هِمّتي قُدرتي ، فيا لَيْتَني لِسوى مَنْ تَماني
ولا غَروَ للحُرّ ، عندَ المَضيـ قِ ، أنْ يتَمنّى وَضيعَ الأماني

قلت : أخي . قال : فمن القائل ؟

صُدُودٌ ، وإنْ كان الحبيبُ مُساعِفاً ، وبُعْدٌ ، وإن كان المَزارُ قريبا
وما فتِئَتْ تلك الدّيارُ حَبائباً لنا ، قبلَ أنْ نَلقى بهِنّ حَبيبا
ولو أسْعَفَتْنا بالمودّةِ في الهَوى ، لأدنَيْنَ إلفاً ، أو شَغَلْنَ رقيبا
وما كان يَجفُو مُمْرِضي ، غيرَ أنّهُ عَدَتْه العَوادي أنْ يكونَ طَبيبا[1]

قلت : عمّي . قال : فمن القائل ؟

أتَيْناكَ ، لا عن حاجةٍ عرَضَتْ لنا إليكَ ، ولا قلبٍ إليكَ مَشُوقِ
ولكِنّنا زُرْنا بفَضْلِ حُلُومِنا حِماراً ، تَلَقّى بِرّنا بعُقُوقِ

قلت : جدّي . قال : فمن القائل ؟

وَيلي على أحْوَرَ تَيّاهِ ، أحْسَنَ ما يَلْهُو به اللاهي
أقبَلَ في غيدٍ حَكَيْنَ الظِّبا ، بيضِ تَراقٍ ، حُمْرِ أفواهِ[2]
يأمُرُ فيهنّ وينْهى ، ولا يَعْصِينَهُ من آمِرٍ ناهي
حتى إذا أمْكَنَني أمْرُهُ ، تَرَكْتُهُ مِنْ خيفةِ اللهِ

---

١ عدته : صرفته . العوادي : الشواغل .
٢ التراقي : جمع التَّرْقوة وهي مقدم الحلق في أعلى الصدر حيثما يترقى فيه النفس .

قلت : جَدُّ أبي . قال : فمن القائل ؟

وَيْحَ الكِتابةِ مِن شَيْخٍ هِبَنَّقَةٍ ، يَلقى العُيونَ برأسٍ مُخُّهُ رارُ[1]
ومُنْتِنِ الرِّيحِ إنْ ناحَيْتَهُ أبداً ، كأنّما ماتَ في خَيْشُومِهِ فارُ

قلتُ : أنا . قال : والذي نفسُ فِرعونَ بيدِه ، لا عَرَضْتُ لك أبداً ، إني أراك عَرِيقاً في الكلام . ثم قلَّ واضمحلَّ ، حتى إنَّ الخُنفَساء لَتَدوسُه ، فلا يشغَل رِجْلَيها . فعجِبتُ منه ، وقلت لزهير : مَن هذا الجِنّيّ ؟ فقال لي : استَعِذْ باللهِ منه ، إنه ضرَط في عين رجُلٍ فبَدَرَتْ من قَفاه ، هذا فِرعونُ ابنُ الجَون . فقلتُ : أعوذُ باللهِ العظيم ، مِنَ النارِ ومن الشيطان الرَّجيم ! فتبسَّمَ زُهَيرٌ وقال لي : هو تابعةُ رجُلٍ كبير منكم ، ففهمتها عنه .

١ هبنقة : رجل يضرب به المثل في الحمق ، أجراه مجرى الصفة . الرار : الذائب من المخ .

الفصل الرابع

حيوان الجن

لغة الحمير

ومشَيْتُ يوماً أنا وزُهير بأرض الجنّ أيضاً نتقرّى الفوائد ونعتمِدُ أنديِتَهَ أهلِ الآدابِ منهم ، إذ أشرَفنا على قَرارةِ غنّاء[1] ، تفتَرُّ عن بركةِ ماء ، وفيها عانةٌ[2] من حُمُر الجنّ وبغالِهم ، قد أصابتها أولَقٌ[3] فهيَ تَصْطَكُّ بالحوافرِ ، وتنفُخ من المناخرِ ، وقد اشتدّ ضُراطُها ، وعلا شَحيجُها[4] ونُهاقُها . فلمّا بَصُرَت بنا أجْفلتْ إلينا وهي تقول : جاءكم على رجليه !

فارتَعتُ لذلك ، فتبسَّم زُهيرٌ وقد عرَف القَصْد ، وقال لي : تَهَيّأ للحُكْم. فلمّا لحقتْ بنا بدَأتْني بالتفديَةِ ، وحيّتني بالتكنيَة . فقلت : ما الحَطبُ ،

---

١ القرارة : المطمئن من الأرض ، والقاع المستدير . غناء : كثيرة العشب ، أو تمر فيها الريح غير صافية الصوت لكثافة عشبها .

٢ العانة : القطيع من حمر الوحش .

٣ الأولق : الجنون أو شبهه .

٤ الشحيج : صوت البغل .

حُمِيَ حِماكِ أيّتُها العانة ، وأخصبَ مَرْعاك ؟ قالتْ : شِعْرانِ لحِمارٍ وبَغْلٍ مِن عُشّاقِنا اختلَفْنا فيهما ، وقد رَضيناكَ حَكَماً . قلتُ : حتى أسمعَ . فتقدَّمتْ إليَّ بغْلةٌ شَهْباء ، عليها جُلُّها وبُرقُعها ، لم تدخُل فيما دخَلتْ فيه العانةُ من سوء العَجَلةِ وسُخْفِ الحركة ، فقالت : أحَدُ الشِّعرينِ لبغْلٍ من بغالِنا وهُو :

على كلِّ صَبٍّ مِن هَواهُ دَليلُ : سَقامٌ على حَرِّ الجَوى ، ونُحولُ
وما زالَ هذا الحُبُّ داءً مُبَرِّحاً ، إذا ما اعترى بَغْلاً فليسَ يَزُولُ
بنَفْسي التي أمّا مَلاحِظُ طَرْفِها فسِحْرٌ ، وأمّا خَدُّها فأسِيلُ
تَعِبْتُ بما حُمِّلْتُ من ثِقلِ حُبِّها ، وإني لبَغْلٌ للثّقالِ حَمُولُ
وما نِلتُ منها نائِلاً غيرَ أنّني إذا هيَ بالتْ بُلْتُ حيثُ تَبُولُ

والشِّعر الآخرُ لِدُكَينِ الحِمار :

دُهِيتُ بهذا الحُبِّ منذُ هَوِيتُ ، وراثَتْ إراداتي فلستُ أَرِيثُ[1]
كَلِفْتُ بإلْفِي مُنذُ عِشرينَ حِجّةً ، يَجُولُ هواها في الحَشا ويَعِيثُ
وما لِيَ مِنْ بَرْحِ الصَّبابةِ مَخْلَصٌ ، ولا لِيَ مِنْ فَيضِ السَّقامِ مُغيثُ
وغَيّرَ منها قلبَها لي نَميمَةٌ ، نَماها أحَمُّ الخُصْيَتَينِ خَبيثُ[2]
وما نِلتُ منها نائِلاً ، غيرَ أنّني إذا هي راثتْ رُثْتُ حيثُ تَروثُ[3]

---

١ راثت : أبطأت .
٢ نماها : أي نسبها إليه . الأحم : الأسود .
٣ راثت : أحدثت .

فضحكَ زُهيرٌ، وتماسَكْتُ، وقلتُ للمنشِدة: ما هَويتُ؟ قالتْ: هو هَويتُ، بلغةِ الحَمير. فقلت: والله، إن للرَّوثِ رائحةً كريهةً، وقد كان أنفُ الناقةِ[1] أجدرَ أن يحكُمَ في الشّعر! فقالت: فهمتُ عنك. وأشارتْ إلى العانة أنّ دُكَيناً مغلوب؛ ثم انصرَفتْ[2] قانعة راضية.

وقالت لي البَغْلة: أما تعرفني أبا عامر؟ قلتُ: لو كانت ثَمّ علامة! فأماطتْ لِثامَها، فإذا هي بغلةُ أبي عيسى، والخالُ على خدّها، فتباكَيْنا طويلاً، وأخذنا في ذكْر أيامنا، فقالت: ما أبقتِ الأيامُ منك؟ قلت: ما ترَينَ. قالت: شبَّ عمرٌو عن الطّوق[3]! فما فعل الأحبّةُ بعدي، أهم على العهد؟ قلتُ: شبَّ الغِلمان، وشاخ الفِتْيان، وتنكّرتِ الخلاّن؛ ومِن إخوانكِ من بلَغَ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة. فتنفّستِ الصُّعَداء، وقالت: سقاهم اللهُ سبَلَ العهد[4]، وإن حالوا عن العَهْد، ونسُوا أيامَ الوُدّ. بحرمةِ الأدَب، إلاّ ما أقرأتَهم مني السلام؛ قلت: كما تأمُرينَ وأكثر.

الإوزة الأديبة

وكانت في البركة بقُربِنا إوَزّةٌ بيضاء شَهلاء، في مثل جُثمانِ النّعامة،

---

١ أنف الناقة: الجني الذي مر ذكره.

٢ انصرفت: الضمير يعود إلى العانة.

٣ شب عمرو عن الطوق: مثل يضرب لمن يلبس شيئاً دون قدره وعمره، أو لمن كبر عن شيء كان يتزيا به.

٤ السبل: المطر. العهد: أول مطر الوسمي، ومطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوله.

كأنّما ذُرَّ عليها الكافُور ، أو لبِستْ غِلالةً من دِمَقْسِ الحرير ، لم أرَ أخَفَّ من رأسها حرَكة ، ولا أحسَنَ للماء في ظَهْرِها صَبّاً ، تَثني سالفتَها[1] ، وتكسِرُ حَدَقتَها ، وتُلولِبُ قَمَحْدُوَتَها[2] ، فترى الحُسْنَ مستَعاراً منها ، والشّكلَ مأخوذاً عنها ، فصاحتْ بالبَغلة : لقد حكمتُم بالهوى ، ورضيتُم من حاكمكم بغيرِ الرّضا .

فقلتُ لزهير : ما شأنُها ؟ قال : هي تابعةُ شيخٍ من مَشْيَختِكم ، تُسمّى العاقلة ، وتُكنى أمَّ خَفيف ، وهي ذاتُ حظٍّ من الأدب ، فاستعِدَّ لها . فقلتُ : أيَّتُها الإوزَّةُ الجميلة ، العريضةُ الطّويلة ، أيَحْسُنُ بجمالِ حَدَقَتَيْكِ ، واعتِدالِ مَنْكِبَيْكِ ، واستقامةِ جَناحَيْكِ ، وطولِ جيدِكِ ، وصِغَرِ رأسِكِ ، مقابلةُ الضّيفِ بمثل هذا الكلام ، وتَلَقّي الطارىء الغريبِ بشبهِ هذا المقال ؟ وأنا الذي هِمْتُ بالإوَزّ صَبابةً ، واحتَمَلتُ في الكَلَفِ بها عَضَّ كلِّ مَقالة ؛ وأنا الذي استَرجَعتُها إلى الوطنِ المألوف ، وحبّبتُها إلى كلِّ غِطْريف[3] ، فاتّخذَتْها السادةُ بأرضِنا واستَهلَكَ عليها الظُّرَفاء منّا ، ورُضيَتْ بدلاً من العَصافيرِ ، ومُتَكلّماتِ الزرازيرِ ، ونُسيَتْ لذّةُ الحَمام ، ونِقارُ الدُّيُوك ، ونِطاحُ الكِباش .

فدخلَها العُجْبُ من كلامي ، ثم ترفّعتْ وقد اعترَتْها خِفّةٌ شديدةٌ في مائِها ، فمرّةً سابحة ، ومرةً طائرة ، تنغمسُ هنا وتخرُج هناك ، قد تَقبّب

---

١ السالفة : ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى الترقوة .

٢ القمحدوة : مؤخر القذال ، والهنة الناشزة فوق القفا ، وأعلى القذال خلف الأذنين .

٣ الغطريف : السيد الشريف .

جَناحاها ، وانتصبت ذُناباها ، وهي تُطَرِّب تطريبَ السّرور ؛ وهذا الفعل معروفٌ من الإوزّ عند الفرح والمرح . ثم سكنتْ وأقامتْ عُنُقَها ، وعرَّضتْ صدرَها ، وعمِلتْ بمِجْدافَيْها[1] ، واستقبلتنا جاثيَةً كصَدرِ المركَب ، فقالت: أيّها الغارُّ المغرور ، كيف تحكُم في الفروعِ وأنت لا تُحْكِمُ الأصول ؟ ما الذي تُحْسِن ؟ قلتُ : ارتجالَ شِعر ، واقتضابَ خُطبة ، على حُكْم المقتَرَح والنُّصْبة[2] . قالت: ليسَ عن هذا أسالُك . قلت: ولا بغيرِ هذا أجاوبُك . قالت: حُكم الجوابِ أن يقَعَ على أصل السؤال ، وأنا إنما أردتُ بذلك إحسانَ النّحوِ والغريبِ اللذَين هما أصلُ الكلام ، ومادّةُ البيان . قلت : لا جوابَ عندي غيرَ ما سمعت . قالت : أقسِم أنّ هذا منك غيرُ داخلٍ في باب الجَدَل . قلت : وبالجدَلِ تطلُبيننا وقد عقَدنا سَلْمه ، وكُفينا حَرْبَه ، وإنّ ما رَمَيتُكِ به منه لأنفذُ سِهامِه ، وأحَدُّ حِرابه ، وهو من تعاليم الله ، عزّ وجلّ ، عندنا في الجَدَل في مُحكَم تنزيله . قالت : أُقسم أنّ الله ما علّمك الجدَل في كتابه . قلت : محمول عنك[3] أمّ خفيف ، لا يَلزَمُ الإوزّ حِفظُ أدبِ القرآن ، قال الله ، عزّ وجلّ ، في مُحكَم كتابه حاكياً عن نبيّه إبراهيمَ ، عليه السلام : « ربّيَ الذي يُحْيِي ويُميتُ ، قال : أنا أُحيِي وأُميت . » فكان لهذا الكلام من الكافر جواب ، وعلى وجوبه مقال ؛ ولكنّ النبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، لمّا لاحتْ له الواضحةُ القاطعةُ ، رماهُ بها ، وأضرب عن الكلام الأول ، قال : « فإنّ

---

١ المجداف : الجناح ، ومنه مجداف السفينة .

٢ النصبة : السارية المنصوبة علامة للطريق ، والمراد هنا ما يشار به من رأي لا يعدل عنه ، يقال : نصبت له رأياً .

٣ محمول عنك : من حمل عنه ، أي حلم .

اللهَ يَأْتي بالشمسِ من المَشرِقِ ، فأتِ بها من المغربِ ؛ فبُهِتَ الذي كَفَرَ . »
وأنا لا أُحسِنُ غير ارتجالِ شعر ، واقتضابِ خُطبة ، على حُكم المُقترَح والنُّصبة.

فاهتزَّت من جانبيها ، وحال الماء[1] من عينَيها ، وهمَّتْ بالطيران . ثم اعتراها ما يعتري الإوَزَّ من الألفة وحسن الرَّجعة ، فقدَّمتْ عُنُقَها ورأسَها إلينا تمشي نحوَنا رويداً ، وتنطِق نطقاً مُتدارَكاً خفيّاً ، وهو فعلُ الإوَزّ إذا أنِستْ واستراضتْ وتذلَّلت ؛ على أني أُحبُّ الإوزَّ وأستظرِفُ حركاتِها وما يعرِضُ من سخافاتِها .

ثم تكلّمتُ بها مُبَسْبِساً[2] ، ولها مؤنِساً ، حتى خالطتْنا وقد عقَدْنا سَلْمها وكُفِينا حَربَها ، فقلت : يا أمَّ خفَيف ، بالذي جعلَ غِذاءكِ ماء ، وحَشا رأسَكِ هواء ، ألا أيّما أفضل : الأدبُ أم العقل ؟ قالت : بل العقل . قلتُ : فهل تعرفين في الخلائق أحمقَ من إوزَّة ، ودَعيني من مَثَلهم في الحُبارى[3] ؟ قالت : لا . قلت : فتطلّبي عقلَ التَّجربة ، إذ لا سبيلَ لكِ إلى عقلِ الطبيعة ، فإذا أحرزتِ منه نَصيباً ، وبُؤتِ[4] منه بحظّ ، فحينئذٍ ناظري في الأدب . فانصرفتْ وانصرفنا .

تمت الرسالة والحمد لله

---

١ حال الماء : أي سقط .
٢ مبسبساً : داعياً بقوله : بس بس .
٣ الحبارى : طائر معروف يضرب به المثل في الحمق والغباوة كما يضرب بالإوز .
٤ باء : رجع .

المراجع

اعتمدنا دواوين الشعراء ، وكتاب الأغاني ، وديوان الحماسة ، والعقد الفريد ، ومعجم البلدان ، والقاموس ، ومعجم دوزي ، في تصحيح الأشعار ، وتحقيق أسماء الأعلام والأماكن ، وشرح الاصطلاحات الأندلسيّة أو الحضريّة ، الواردة في رسالة التوابع والزوابع . ورجعنا في الكلام على ابن شُهيد ونقد آثاره إلى هذه الكتب :

الكتب العربية

ابن بسام	:	الذخيرة
الفتح بن خاقان	:	مطمح الأنفس
الثعالبي	:	يتيمة الدهر
المقري	:	نفح الطيب
ابن خلدون	:	كتاب العبر
ابن خلكان	:	وفيات الأعيان
ابن عذاري	:	البيان المغرب
بطرس البستاني	:	أدباء العرب ، ج ٣
بطرس البستاني	:	معارك العرب في الشرق والغرب

الكتب الفرنسية

— Dozy, Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne, Leyde — E. J. Brill 1881.

— Cl. Huart, Histoire des Arabes, Geuthner, Paris.

— Louis Bertrand, Histoire d'Espagne, Arthème Fayard, Paris.

— C. Brockelmann, Histoire des Peuples et des Etats Islamiques (Traduction de M. Tazourout) Payot, Paris.

فهرس المحتويات

الكتاب الأول
ابن شُهيد الأندلسي
حياته ، أدبه ، رسالة التوابع والزوابع

الكتاب الثاني
رسالة التوابع والزوابع
المدخل

الفصل الأوّل ـ توابع الشعراء

الفصل الثاني ـ توابع الكتّاب

الفصل الثالث ـ نقّاد الجن

الفصل الرابع ـ حيوان الجن

Ibn SHŪHĀID

RISĀLAT at-TAWĀBI' waz-ZAWĀBI'

Dar SADER, publishers
P.O.B. 10
BEIRUT, Lebanon